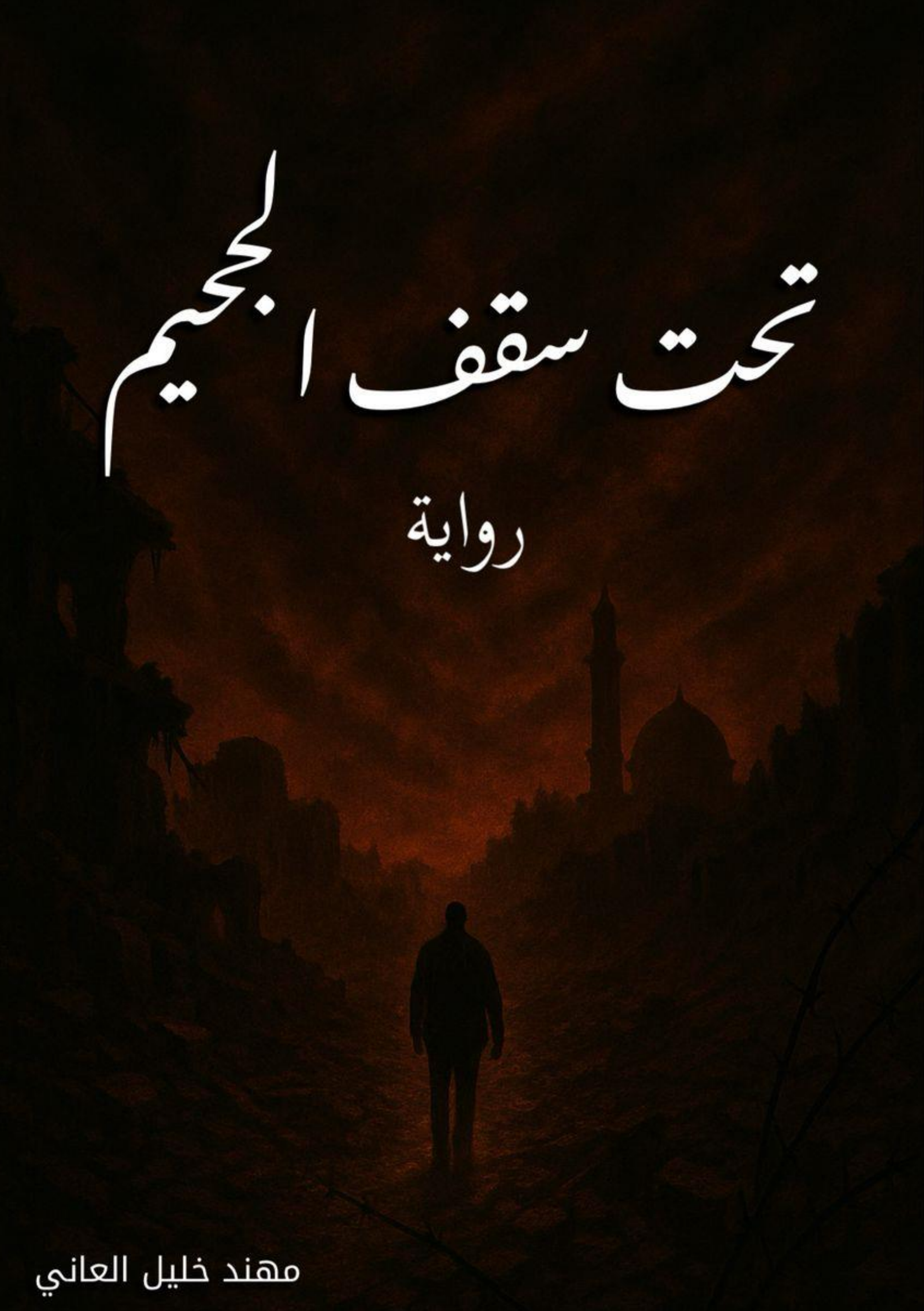

تحت سقف الجحيم

رواية

مهند خليل العاني

تحت سقف الجحيم

مهند خليل العاني

مقدمة

ليست هذه رواية عن الحرب فحسب،

ولا عن الركام الذي يغمر وجه المدينة،

لا عن البنادق التي لا تفرّق بين الحلم والخوف بين ملامح طفلٍ نائم وصوت رصاصٍ مباغت.

ليست عن الجدران المتداعية وحدها ولا عن الأزقة التي التهمها الحصار

ولا عن السجون التي ضاقت بأسماء أصحابها حتى صارت الأرقام وحدها ما يُتداول في الذاكرة.

ليست فقط عن الظلم، ولا عن العتمة التي زحفت على الأحياء، ولا عن الجدران التي استمعت لكل شيء ولم تُجِب.

هذه رواية قلب

قلبٌ ظلّ ينبض، لا بعنادٍ فقط،

بل بإيمانٍ عميق بأن الظلمة، مهما امتدت، لا تملك أن تطفئ جمرة إنسانية بسيطة.

هي رواية نزار نعم، لكنها ليست حكايته وحده.

هي حكاية من سار في شوارع دمشق حاملاً الذاكرة في جيبه،

كمن يخاف أن تضيع.... كمن يعرف أنها كل ما تبقّى له.

هي حكاية من عاش طفولته بين زواريها، وركض خلف كرات الطين،

ثم وجد نفسه فجأة مطاردًا من ظله.

ملاحقًا من وجعٍ لا يفهمه، وواقعٍ لا يترك له فسحة للدهشة.

هي حكاية من أحبّ، فانتظر، فخسر، فكتب.

كتب لا ليوثّق، بل ليبقى واقفًا.

ليست الكتابة هنا فعلًا أدبيًا فقط، بل مقاومة صامتة،

ونجاة بصوتٍ داخلي كان يمكن أن يُكتم إلى الأبد.

كتبتُ هذه الرواية بشغفٍ لم يكن طارئًا، بل وُلِد من قلبٍ ظلّ هناك.

قلبٍ ما زال يحمل على ملامحه غبار الزنازين

وندى الصباحات التي كانت تمرّ من شقوق الجدران كشهادة حيّة.

كتبتها من عيونٍ قرأت المشهد عن قرب

من تفاصيل لم تتركني

بل بقيت تسكنني حتى في أقصى محاولات النسيان.

من لحظة صدق لم أستطع الهرب منها،

لأن من عاش الحقيقة لا يملك ترف الهروب.

كنتُ واحدًا ممن عاشوا شيئًا من تلك الأيام.

لم أكتب كشاهد بعيد،

بل كمن احترق بالنار ذاتها، وخرج منها مثقوبًا، لكنه ما زال يتنفس.

لم أكتب لأروي بطولة، بل لأقول:

هذا ما كان هذه رائحة الأيام التي انقلبت على أصحابها،

وهذه ظلال الوجوه التي ما زالت تعيش بيننا حتى لو غابت.

"سقف الجحيم" ليس جدرانًا وزنازين فقط.

هو تلك اللحظة التي تفقد فيها يقينك،

فلا تعرف من أنت، ولا لأي جهة تمشي،

لكنه أيضًا ذلك النفس البسيط الذي إن خرج يعني أنك ما زلت تقاوم.

هو صورة الوطن حين يُكسر لكنه لا ينطفئ وصوت الإنسان حين يُمنَع لكنه لا يُنسى.

هو الثورة كما عرفناها:

وجع يتحوّل إلى معنى، وانكسار يرفض أن يتحوّل إلى صمت.

سوريا الحرة ليست شعارًا في هذه الصفحات.

إنها الروح التي تسري في كل سطر، في كل تنهيدة مكتومة،

في كل اسمٍ غائبٍ ما زلنا ننتظره.

هي وطن لا تحكمه المخابرات، ولا تُغتال فيه القصيدة،

ولا يُحاصَر فيه الحلم.

هي الحنين حين لا يكون للبكاء صوت،

والأمل حين يصير الوجع هو اللغة الوحيدة المفهومة.

أقدّم هذه الرواية لا كحكاية شخصية، بل كأمانة.

كتبتها من القلب،

لأن بعض القصص لا تُروى لتُقرأ فقط، بل لتُبقي أصحابها على قيد الحياة.

لأن بعض الأرواح لا تموت ما دمنا نكتب عنها

ما دمنا نؤمن أن الكتابة يمكن أن تكون وطنًا مؤقتًا حين يتشظّى الوطن.

لأن الحكايات حين تُقال بصدق،

يمكن أن تُعيد تشكيل المعنى وتعيدنا إلى ذواتنا التي فقدناها.

قبل أن تبدأ الحكاية وقبل أن تنغمس في تفاصيلها،

دعني أضع على هذه الصفحات وردةً صغيرة، وامتنانًا لا يزول.

لأن الكلمات التي نكتبها ليست منّا فقط بل من الذين سبقونا إلى النور أو سقطوا وهم يشيرون نحوه.

لأن هذه الرواية مهما بدت فردية هي امتداد لصوتٍ جمعي وشهادة وفاء لأولئك الذين علمونا كيف نكتب بالدم ونحلم رغم الرماد.

إهداء

إلى روح والدي، الأستاذ خليل العاني،

الذي علّمنا كيف نصغي للكلمات قبل أن نكتبها،

وألهمنا أن نبحث عن المعنى في الزوايا الصامتة للحياة.

إلى شهداء الثورة السورية إلى من ارتقوا وهم يرددون: "الحرية أولًا"،

إلى الذين مشوا أمامنا فشقّوا درب الكرامة بدمهم وابتساماتهم.

إلى الشعب السوري، الجرح الحيّ والضمير المتعب،

الذي قاوم القهر بالعزيمة، وظلّ متمسكًا بالحب رغم الحصار.

إلى أبطال الثورة الأحرار،

أولئك الذين أعادوا إلينا الكرامة حين نسينا كيف تُنطق،

وجعلونا نؤمن أن الصمت جريمة، وأن الصراخ... بداية.

إلى سوريا وعزها كما نحبها، كما نحلم بها، كما سنراها يومًا... حرة.

إلى كل من فقد، من انتظر، من قاوم بصمت،

من صدّق أن الحرية ليست وهماً.

إلى كل من مشى في طريقٍ واحد، يحمل على كتفيه حلماً أكبر منه:

أن نكون يومًا، أبناء وطنٍ لا نخاف فيه من صوتنا... ولا من ذاكرتنا.

ما قبل العاصفة

كانت الشمس تتسلل بخجل بين النوافذ القديمة تنزلق أشعتها فوق جدرانٍ أرهقها الزمن احتفظت في شقوقها بآثار كل من مرّ ومضى.

جدرانٌ شهدت الحب والخوف، الأسرار والخذلان، وظلّت صامتة، كأنها عرفت كل شيء ولم ترغب في قول شيء.

في ذلك الصباح الباكر غمر الضوء وجه نزار بدفءٍ خفيف بدا كأنّه يعتذر له... أو يودّعه.

كانت المدينة تمارس هدوءها المُتعمّد كأنّها تعرف أن شيئًا قاسيًا يقترب

لكنّها تُفضّل أن تتظاهر بالنوم.

نهض من فراشه الخشبي ببطء كمن يخرج من حلمٍ ثقيل لا يُدرك تمامًا إن كان انتهى أم انه ما زال عالقًا في ثنايا روحه.

أصابعه تتلمّس الهواء بحثًا عن شيءٍ ما

عن معنى مفقود أو عن إحساسٍ قديم لم يعد يعود.

ملامحه تحمل آثار سهرٍ بلا سبب واضح

داخل صدره كان نَفَسُه يعلو ويهبط بإيقاعٍ خافت

لا يشبه حياةً مكتملة ولا موتًا صريحًا.

الغرفة ضيقة متآكلة الأطراف كأنّها تنكمش معه مع كل صباح.

على الطاولة كتاب مفتوح لم يُكمِلْه

على الحائط ساعة متوقفة منذ أيام كأن الزمن قرر أن يتوقف

هنا تحديدًا حيث لا جديد يُنتظر ولا نهاية وشيكة تُخيف.

كل شيء ساكن... إلا قلبه.

خارجًا في الزقاق الدمشقيّ الضيق كانت الحياة تستجمع ما تبقّى من عادتها.

أصوات الباعة تتسلل من بعيد تختلط بروائح الخبز الساخن والتوابل المطحونة،

القطط تموء تحت النوافذ كعادتها.

العجائز يجلسون على العتبات يتناقلون حكايات الجيران بصوتٍ خفيض

كأنهم يحاولون تثبيت الصورة الأخيرة قبل أن تُمحى فجأة.

كل شيء بدا مألوفًا أكثر من اللازم لدرجة تُشعرك بأن خلف هذا التكرار...

يكمن ما لا يُقال.

كان نزار شابًا في بداية العشرينات لا يحمل في ملامحه ما يميّزه عن غيره،

في عينيه ظلٌّ غامض... ظلّ يشبه من رأى أكثر مما يبوح، وأحبّ أكثر مما نال،

يمشي بين الجدران وكأنها تعرفه كأنها تحفظ سره وربما تشهد على وحدته.

في داخله لم يكن هناك حلمٌ واضح ولا طريقٌ مرسوم.

قلبه كان مائلًا إلى العزلة روحه تتأرجح على الحافة تتقدم خطوة... وتتراجع اثنتين

كأنّه لم يختر الحياة تمامًا ولم يرفضها تمامًا أيضًا.

في ذلك الصباح لمحها تمشي بين ظلّين بهدوءٍ يربك الهواء.

لم يكن يعرف اسمها ولا من أين جاءت لكنّ مرورها خلخل إيقاعه الداخليّ

أسكت صوته الذي اعتاد الحديث مع نفسه وأيقظ في داخله شعورًا بدائيًا،

شيئًا أشبه بالرجاء... أو بالموت الجميل.

لم تكن تعرف بوجوده ربما لم تلتفت له.

لكنّه في تلك اللحظة القصيرة،

شعر أن حياته تنقسم إلى ما قبلها... وما بعدها.

شعر بشيء يشبه الطمأنينة وفي الوقت ذاته... يشبه السقوط.

لم يكن يعلم أن الحرب على الأبواب

أن الثورة، والخذلان، والفقد، والحب، والموت،

كلها تتهيّأ في الظل لتدخل إلى حياته دون استئذان.

لم يكن يدرك أن كل ما اعتاده سيتغيّر:

الأزقة، الوجوه، الأصدقاء، حتى صوت المؤذن.

لكنّه شعر بطريقة لا تُشبه الفهم

أن الأرض بدأت تتحرّك تحته.

أن العالم كما عرفه يوشك أن يتفكّك

وأن قلبه الذي ظلّ يختبئ خلف الحذر سيُجبَر قريبًا على أن يختار:

أن يحبّ... أو أن ينكسر أن يبقى... أو أن يولد من رماد ما ظنه يومًا حياة.

ربما كان ذلك الصباح ببساطته، آخر صباح يشبه الحياة كما كانت.

صباحٌ فيه شمس ووجهٌ غامض وزمنٌ يتسلّل بصمتٍ نحو الهاوية

وصمتٌ طويل... كان يسبق العاصفة.

صرخة الحناجر

بدأ كل شيء كما تبدأ العواصف

بصمتٍ ثقيل لا ينبئ بشيء، لكنه يحمل في طياته كل شيء.

كان آذار قد حلّ، والبرد في نهايته،

في قلب المدينة كان هناك صقيع من نوع آخر يتكوّن... ببطء، وعلى مهل.

السماء ما تزال زرقاء، والشوارع ما تزال تمتلئ بخطى الناس،

لكن شيئًا في الهواء قد تغيّر.

كأنّ دمشق تتنفّس على حذر

كأنّ أحدهم همس لها سرًّا فأغلقَت أبوابها جيدًا ولم تردّ.

الأخبار لم تأتِ دفعة واحدة بل تقاطرت كما تتقاطر قطرات الماء على جدارٍ قديم تشقّق بفعل الوقت...

كلامٌ متقطّع جملٌ مترددة همس بها أحدهم في دكان أو عند باب فرن

أو في عتمة زقاق لا تجرؤ عليه الشمس:

اشتعلت درعا.

كتب الأطفال على الجدران: "إجاك الدور يا دكتور."

لم تكن الجملة طويلة لكنها كانت كافية لاهتزاز مدينة، لاهتزاز بلدٍ بأكمله.

كتبوا، فاعتُقلوا، وقيل إنهم عُذّبوا،

وأن أصواتهم الصغيرة انطفأت داخل غرف لا نوافذ لها.

عندما طرق أهاليهم الأبواب بحثًا عنهم لم يُفتح شيء يشبه العدالة

بل شيء يشبه الجحيم.

الحيّ لم يتحدث كثيرًا في دمشق

عندما تتكلم الجدران تصمت الألسنة

الناس تهامس تختصر كلماتها تتلفّت حولها قبل أن تقول ما لا يجوز

في قلب نزار لم يكن هناك مكان للتكتم.

هناك في أعماقه كانت جملةٌ تتردّد كل مساء كأنها دعوة لا تُردّ:

"هذا لن يبقى بعيدًا."

جاءت الجمعة تحمل اسمًا لم تألفه المدينة من قبل:

جمعة الكرامة.

في ساحة الحجاز، حيث تقف القطارات وتزدحم الأرصفة كان هناك عشرات من الناس...

ربما مئة....

رجال ونساء، شباب وشيّاب،

لم يحملوا سلاحًا، لم يرفعوا شعارًا غير صوتهم.

كان الهتاف يتصاعد كحرارةٍ من قلبٍ اشتعل دفعة واحدة:

"الله، سوريا، حرية وبس."

ثلاث كلمات فقط لكنها كانت كافية لتُربك الشوارع وتوقظ ما كان نائمًا.

لم يهتف نزار.

ظلّ واقفًا خلف عمود كهرباء كما لو أنه يحتمي من شيء لا يمكن لمسه.

كانت عينه تتابع الحناجر التي تعالت والأذرع التي ارتفعت كأن كل ما في المكان تحوّل فجأة إلى لحنٍ جديد... نشازٌ بالنسبة للعالم القديم.

جاءت الخطوة الأخرى.

رجال بملابس قاتمة اندفعوا نحو الجمع بأيديهم

هراوات لا تفرّق بين جسدٍ وخوف أو بين صرخةٍ ووجهٍ يبحث عن معنى.

تفرّقت الجموع ....

ركض بعضهم وبعضهم سُحب في سيارات مغلقة

صرخ أحدهم، ثم اختفى الصوت كأن المدينة نفسها قررت أن تبتلع الأصوات

أن تعيد ترتيب صمتها بالطريقة التي تعرفها.

لم يستطع نزار أن ينام تلك الليلة

جلس قرب النافذة يراقب السماء الرمادية وهي تنخفض كغطاء ثقيل على المدينة

كان يحدّق لا في الغيوم، بل في داخله.

لأول مرة في حياته، لم يفكر في الحب، ولا في الدراسة، ولا في الغد

بل فكّر في الموت... كيف يبدو حين يقترب؟

هل هو ظلّ؟ هل هو فكرة؟

أم أنه ذلك الشعور الذي يجعلك تتوقف فجأة في منتصف الطريق وتستمع لصمتك؟

في اليوم التالي بدا كل شيء مختلفًا المدينة ما تزال كما هي لكنها لم تكن كما كانت.

الناس صارت تمشي بسرعة كأنهم يريدون تجاوز اللحظة الأحاديث صارت أخف، وكأن كل كلمة قد تكون عبئًا إضافيًا على القلب.

في الزقاق ذاته حيث اعتاد نزار أن يمرّ كل صباح لم يعد يشمّ رائحة الخبز الساخن.

بل رائحة الرماد كأنّ شيئًا ما احترق بهدوء أثناء نوم الجميع.

القطط صارت أكثر توجسًا، العجائز أكثر صمتًا والشباب يبدون كما لو أنهم كبروا في يومٍ واحد.

شعر أن المدينة تغيّرت وأن شيئًا فيه قد بدأ بالتحوّل.

لم يقل لأحد شيئًا ،

لكنه عرف في صميمه أن ما حدث لم يكن عابرًا

وأن الطريق التي بدأت لن تتوقف الآن،

وأن كل ما عُرف من قبل... صار شيئًا يشبه الذكرى.

بدأت الحكاية...

خطوات ثقيلة

لم يكن نزار ثائرًا، ولم يتخيّل يومًا أنه سيكون كذلك.

كان من أولئك الذين يفضّلون السير بمحاذاة الجدار،

الذين يتوارون عن الضوء كلما اشتد ويُحسنون الإصغاء دون أن يتورّطوا بالرد.
لم يكن جبانًا لكنه كان حذرًا يتقن فن تفادي الحواف،

يعيش على هامش المشهد كمن يراقب حريقًا من خلف زجاج مغلق،

دون أن يملك الجرأة أو الرغبة في الاقتراب.

لم يكن يكره أحدًا ولم يكن غاضبًا من شيء لكنه لم يكن راضيًا أيضًا.

كان يعتقد أو يوهم نفسه أن الحياة يمكن أن تمضي بسلام ما دام لم يعارضها.

أن الحذر نوعٌ من الذكاء وأن النجاة أحيانًا تكمن في أن تنأى بنفسك خطوة إلى الوراء أو أن تغضّ الطرف عما لا يُطاق.

لكنه دون أن يدري كان يعيش في مدينةٍ تُعدّ أنفاسها في زمنٍ لم يعد يسمح بالوقوف على الأطراف.

الحروب لا تمنح أحدًا خيارات كثيرة.

عندما تشتد العاصفة لا تعنيك المسافة التي تفصلك عن مركزها

ولا تمنحك الجدران أمانًا حقيقيًا.

المراقبة لا تُعفي من الانغماس والحياد لا يُنقذ من أن يُجرّ الإنسان إلى قلب الحدث، ولو رغماً عنه.

ثمّة لحظات تأتيك فجأة كصفعة على وجه نائم تغير ما تظنه عن نفسك وتُعيد تعريف المعنى الكامل لوجودك.

في أوائل نيسان تسللت إلى المدينة أنباء المجزرة في الجامع العمري بدرعا.

لم تكن إشاعة ولا خبرًا عابرًا بل صورة ساطعة

كالكارثة لا تقبل التأويل.

الدم على بلاط المسجد، الأحذية المبعثرة، الأجساد التي أُنهكت حتى الموت، والصرخات التي التقطتها هواتف المرتجفين قبل أن تُمحى.

لم يكن في الأمر شك ولا حاجة للتفكير.

الحقيقة كانت دامغة... قاسية، من غير الممكن أن تُطوى بهدوء.

رأى تلك الصور على هاتف صديقه في مقهى صغير عند آخر الحي.

كان المكان هادئًا ككل المقاهي الدمشقية التي اعتادت الصمت منذ زمن.

لكن الصمت تلك اللحظة بدا غريبًا، مشوّهًا، وكأن الجدران نفسها تئنّ.

لم يُعلّق أحد، لكن العيون كانت تقول كل شيء:

الغضب، الخوف، الخذلان.

شعر أن شيئًا داخله يُكسر بهدوء لم يكن كسرًا صاخبًا بل خافتًا موجعًا يشبه تلك اللحظة التي تدرك فيها

أن العالم الذي كنت تحتمي فيه لم يعد صالحًا للسكن.

فجأة، لم يعد ممكنًا التظاهر بأن شيئًا لم يحدث.

خرج من المنزل دون خطّة.

لم يكن قد قرر شيئًا لكن قدميه قادته إلى ساحة كفرسوسة كأنهما تعرفان الطريق منذ زمن.

لم يحمل لافتة ولم يهتف ولم يعرف بالضبط لماذا هو هناك.

مشى... فقط

انساب مع الحشود كأن جسده لم يعد يخصّه،

كأن الصوت الذي يملأ الساحة يستدعيه من أعماقه.

مئات من الأصوات تملأ المكان، تصرخ، تهتف، تئنّ.

كان نبضه يرتفع كأن روحه بدأت تستيقظ من نومٍ طويل.

اقترب منه شاب لم يعرفه وجهه شاحب لكنه ثابت،

وضع علم الاستقلال على كتفه، قال له بنبرة حازمة لم تخلُ من الرجاء:

"إذا سكتنا، من بدّو يحكي؟"

لم يجب نزار لم يكن يعرف ماذا يقول ..

شعر بكلمات الشاب تخترق صدره تُضيء في داخله غرفةً كانت مغلقة لسنوات.

لأول مرة أحس أن قلبه يصرخ.

لم يكن صوتًا بالمعنى الحرفي لكنه كان موجودًا حاضرًا لا يمكن تجاهله.

كان يشبه نداءً داخليًا... لا يمكن الفرار منه.

عاد إلى بيته متعبًا مساء على نحوٍ لم يعهده.

لم يكن التعب في قدميه بل في عمق روحه.

تلك الليلة بدا له كل شيء مختلفًا.

الحيّ، الجدران، ظلال المارة،

حتى صوت أذان العشاء الذي كان يملأ الأزقة...

كل شيء فقد حياده القديم.

فتح الباب، وجد والدته تنتظره

لم تسأله أين كان.

نظرت إليه بعينين دامعتين وقالت بصوت مرتجف:

"لا تكون مثل ابن أم أحمد... طلع وما رجع."

قالتها ثم صمتت

بقيت تلك الجملة تتردد في ذاكرته لليالٍ طويلة.

رأى في عينيها الخوف الصامت القلق القديم،

الانكسار الذي صار يسكن كل أم في المدينة.

منذ ذلك اليوم،

أصبحت البيوت تُحصي أبناءها كل مساء.

تحصيهم كما تُحصى النعم وكأن كل عودة صارت تُعدّ معجزة.

كل خروج صار مُحمّلًا بالوصايا.

كل لحظة تأخير تُلهب القلوب.

حتى أسماء الأحياء تغيّرت.

لم تعد تُذكر كأماكن للزيارة أو الذكريات بل كعناوين للعناوين العاجلة،

لمواقع تشتعل فيها النار:

القابون، حرستا، برزة، التضامن، الحجر الأسود... أسماءٌ كانت مألوفة،

لكنها الآن صارت تشير إلى اتجاه الريح، إلى الخطر القادم.

تلك الليلة جلس نزار إلى طاولته لم يشعل الضوء.

فتح دفتره القديم أخرج قلمًا خافت الحبر

كتب فيه جملة واحدة بدت له وكأنها خلاصة كل ما شعر به منذ بدء اليوم:

"أشعر أنني أمشي فوق جسر هشّ، وكل خطوة قد تكون الأخيرة... لكني لا أملك إلا أن أمشي."

أغلق الدفتر وأسند رأسه إلى الحائط

ظلّ يحدّق في السقف طويلاً كأنما يحاول أن يرى ما خلفه.

في تلك اللحظة، أدرك أن شيئًا في داخله تغيّر... تغيّر للأبد.

لم يعد الصمت خيارًا .... لم يعد ممكناً أن يراقب فقط.

انفتح الباب

وها هو داخل الحكاية لا في هامشها.

حين مشى في الضوء

كان اليوم جمعة ككل جمعة رماد و نار و حناجر تقطع....

الهواء ثقيل لا من قيظٍ أو رطوبة

بل من قلقٍ يتسرّب كالدخان إلى الرئة ولا يخرج.

المدينة تمشي على رؤوس أنفاسها كأن الجميع ينتظر شيئًا

لا يعرف متى سيحدث، لكنه حتمي.

الناس تهمس بأقدامها فوق الأرصفة تتلفّت أكثر مما تنظر

كل ظلّ يُراقب كل حركة يُعاد حسابها،

حتى العيون بدأت ترتاب من نظيراتها.

في دمشق،

صار الصمت لغة مشتركة

لغة مشبعة بالرعب والإصرار في آن واحد.

كان يمشي وسط هذا التوتّر يحمل في داخله شيئًا يتبدّل.

لم يعد يرى الوجوه المطفأة كما كان بل وهجًا خافتًا تحت الجلد،

نظرات سريعة تختزن في عمقها مزيجًا مربكًا

من الغضب والحنين والرغبة الدفينة في أن يحدث شيء... أي شيء،

كأن الناس جميعًا تتنفّس على مهل بانتظار شرارة.

حين وصل إلى حيّ الميدان كان الهتاف قد بدأ يصعد من الحناجر إلى السماء.

"واحد، واحد، واحد... الشعب السوري واحد!"

تردّد الصوت بين الأبنية القديمة كأذانٍ جديد كأجراس كنيسة

كرجع روحٍ تبحث عن نفسها منذ زمن بعيد.

وقف في أطراف الحشد دون أن يخطّط، هتف.

خرج الصوت من حنجرته

كصرخة وُلدت هناك منذ سنين لكنها لم تجد طريقها إلى الآن.

لم يعد متفرّجًا لم يعد ظلاً على الجدار

دخل بين الناس كما لو أنه يعود إلى جسده بعد غياب.

كان في الداخل دفء غريب خليط من القلق والانتماء من الخوف واليقين،

شعورٌ مربك لكنه واضح:

هذه لحظة لا تعاد.

شاب بجانبه ناوله علماً صغيرًا مطويًا كسرّ

قال له مبتسمًا:

"احمله، هاد مو سلاح."

ضحك نزار دون أن يعرف لماذا حمله كان العلم خفيفًا في يده، كريشة

أحس بثقله الهائل في عيون من يراقبون

كان كمن يرفع تاريخه، صوته، وربما حكمه المؤجل.

ثم جاءت اللحظة... صرخ أحدهم من آخر الزقاق:

"أمن!"

تكسّر المشهد

تفرّقت الأجساد كأوراق في عاصفة

ركضت الأرجل بلا جهة

علت الصرخات فوق الهتاف صفاراتٌ ملتاعة جاءت من الخلف كعواء حديديٍّ من باطن جهنم.

ركض نزار... ركض كمن يهرب من ماضيه، من تردّده، من صمته، من كل الأوقات التي قال فيها:

"ليس لي شأن."

ركض كأن الجري قد ينقذه من كل ما لم يفعله

لكنهم لحقوا به.....

امسكه اثنان من ذراعيه، ثالث جرّه من قميصه حتى تمزّق

رابع صفعه على عنقه صفعة....

لم تكن لتُسكت صوته، بل لتُطفئ فيه شيئًا أعمق...

صرخ نزار:

"أنا ما ساويت شي!"

ردّ أحدهم دون أن ينظر إليه:

"خراس...بدكن حرية .... بتتعلم تحكي بس لما نحبس ريقك."

كانت الكلمات كالمطرقة لا في معناها فقط بل في الطريقة التي أُلقيت بها...

كأنك لا تملك شيئًا لا حتى حق التبرير.

في الطريق إلى السيارة السوداء المغلقة شعر نزار بشيء يتكسر داخله

لم يكن غضبًا ولا حتى خوفًا،

أشبه بالخذلان العميق.

خذلان ليس من الرجال الذين اعتقلوه،

بل من الفكرة التي نشأ عليها:

أنك إن لم تخطئ، فأنت في مأمن.

أن الحياد ملجأ

أن السير بمحاذاة الحائط يقيك من الريح.

لكن الريح جاءت من داخل الجدران هذه المرة

ركب السيارة، كانت مغلقة كصندوق كوابيس.

جلس بين وجوهٍ شاحبة عيون متّسعة لا تعرف أين تنظر

كل جسد مشدود

كل نفس مؤجَّل

كأن الداخلين إلى تلك العربة عالقون في مشهدٍ لم يُكتب له نهاية.

همس أحدهم بنبرة هامسة لكنها واضحة:

"أول مرة؟"

هزّ نزار رأسه، قال بخفوت: "إيه..."

أجابه الآخر:

"رح تتعرف... رح تتعرف ع السقف .... سقف الجحيم "

لم يفهم نزار تمامًا، لكن الجملة علقت في ذاكرته كجرحٍ غائر.

سيعرف...قريبًا حين يدخل

لا إلى زنزانة فقط بل إلى عالمٍ آخر عالمٍ بلا نوافذ...

عالم اسمه:

تحت سقف الجحيم.

تحت سقف الجحيم

لم يعرف كم مرّ من الوقت منذ أن أُغلق باب السيارة خلفه.

كل دقيقة هناك كانت أثقل من أن تُقاس،

كأن الزمن نفسه اختنق في صدره وراح يتهالك.

كان الهواء كثيفًا لا يُستنشق

الأصوات من حوله تدور في حلقة مغلقة

تنفّسٌ متسارعٌ متقطّع بكاءٌ مكتومٌ يتهدّل من الأعماق،

تمتماتٌ خافتة كأدعية مكسورة.

صوت الحديد حين يُغلق يشبه القفل حين يُحكم على العقل،

حين يُغلق على الضوء، على الأمل، على المعنى.

لم يقل أحد شيئًا

اقتادوه.

خطواتهم كانت صلدة، بلا ملامح، بلا أثر.

أدخلوه في ممر لا يعرفه ضيّق كحلق الموت.

شمّ رائحة العفن، والصدأ، والعرق اليابس العالق في جدران لا تُنكر ماضيها.

الجدران كانت تضيق شيئًا فشيئًا، الهواء أقل من أن يُكفي،

الزمن كان محدودًا... مشدودًا كوتر مكسور.

لم يكن هناك تحقيق.

لا أسئلة، لا وجوه.

فقط أوامر، جافة، مقتضبة، كالرصاص:

"وشّك للحائط!"

"إيديك لفوق!"

"اركع!"

صفعة ثم... صمت.

ضوء باهت يُشعل كأنّه تذكير بوجود حياة.

يُطفأ بعد لحظة كأنّه يندم.

حتى الرؤية لم تكن ملكه.

أُلقي في زنزانة لا شيء فيها إلا العتمة والرطوبة.

أرضٌ باردة كأنها تحته فقط.. كأنها اختيرت لتُطفئ فيه آخر حرارة.

جدران تفرز البلل ككراهية لا تكلّ ولا تهدأ.

لم يكن وحده.

رغم أن الظلام كاملاً كان هناك أنين خافت إلى يساره وتنفّس متهدّج إلى يمينه.

كان الصوت أوضح من الصورة والخوف.

أوضح من كل شيء.

همس له فتى بدا أصغر منه

"كلنا هون مشان كلمة... حتى لو ما قلناها."

لم يرد

كان الصوت محبوسًا في حلقه كأن الحروف هجرت لسانه.

جسده ثقيل لكنه غائب.

كأنه يُطفأ من الداخل كأنّه يُمسَح.

سمع شيئًا في داخله.

ليس صوتًا، بل سؤالاً، اشتعل في العمق كجمرة:

"هل كنا نعيش تحت هذا السقف منذ البداية، ونحن نحسبه سماء؟"

عادت العبارة التي قالها له ذاك الشاب داخل السيارة، حين التقت عيونهما للحظة قبل العتمة:

"تحت السقف، ما في ضو."

حينها لم يفهم أو لم يُرِد أن يفهم

لكنه الآن فهم

كل خلية فيه فهمت.

السقف...السقف فقط...هو ما فوقنا.

ليس سماءً بل جدار واطئ.

جدار من الخوف..... من الذلّ.

من صمتٍ ثقيلٍ متواطئ.

من انتظار لا يحمل وعدًا ولا نهاية.

في خضم كل هذا الخراب و وسط الصمت المعجون بالألم،

دقّت جملة في رأسه كأنها سقطت من مكان آخر،

من ذاكرة لم يسبق له أن عرفها:

"أنا لست هنا لأتأقلم... بل لأتذكّر."

لأتذكّر الوجع كما هو

لأتذكّر الأصوات، الظلال، العيون التي انطفأت.

القلوب التي ما زالت تنبض في هذا الليل الطويل

لأتذكّر من أنا، ومن كنا، وماذا يعني أن نحلم في مكانٍ يُطارد الأحلام.

فتح عينيه نحو الأعلى،

لا شيء سوى السواد.

سقط كل شيء في حضرة الصمت

صمت طويل ثقيل،

لا يُقاس بالساعات، بل بالصرخات.

في ظلال الجحيم

لم يعرف كم مرّ من الزمن بعد أن أغلق الباب الحديدي وراءه، وأُلقى به في عتمة لا تُحتمل.

كان كل نفس يختنق في صدره

كل ثانية تُثقل كاهله أكثر من السابقة.

الهواء داخل الزنزانة كأنه مُسمّم.

لا يملأ الرئتين، بل يضغط عليه بثقل لا يُطاق.

من حوله صمت قاتل،

صمت مليء بالصراخ الخفي،

صدى آهات محطمة تمزق الجدران،

أحجار الأرض الرطبة التي ابتلعتها دموع لا تُرى.

لم يكن السجن مجرد مكان بل كان آلة طحن تقصم الظهر وتقتل الروح شيئًا فشيئًا.

كل خطوة له هناك كانت حربًا خفية مع الظلام الذي يلتهمه من الداخل.

في الغرفة الضيقة لا مكان للحركة ولا للراحة يرمق الجدران بعينين لا تعرفان النوم.

رائحة العفن اختلطت برائحة الدم والعرق المتجفف،

كل شيء يصرخ بمعاناة لا تعرف الرحمة،

لم يكن هناك تحقيق بمعناه الحقيقي،

بل كان مشهدًا من الكوابيس،

أسئلة ركيكة تُطرِح بلا معنى،

تحمل في طيّاتها تهديدًا دائمًا وحكمًا مسبقًا على الجسد والعقل:

"من أنت؟

ليش بتشارك؟

مين بيساعدك ؟

قديش عم يدفعولك ؟

احكي ، وإلا..."

و"إلا"

كانت تترجم بأشكال مختلفة:

صفعة تهشم عظمة، قبضة تسحق أنفًا، ضربة تهوي على ظهر مكسور،

صوت صراخ مكتوم ينطلق من بين الشفتين المكسورتين.

كان الضرب لا يرحم، لا يتوقف، يترك أثرًا عميقًا في اللحم والعقل.

يد واحدة تصفع، وأخرى تلطم

العصي تنهال بلا هوادة حتى أصبح جسده قطعة متنقلة من الألم والدماء من الكدمات والندوب التي لا تنسى.

أحيانًا كان يُلقى على الأرض ليُترك يتلوى في عذابه،

يتحسس جسده الذي لم يعد له،

يتمنى أن يتوقف الألم، لكنه لم يتوقف.

الألم أصبح رفيقه الوحيد، وحيدًا معه في الظلام،

يتذكر كل لحظة، كل صرخة لم تُسمع، كل دمعة لم تُرَ.

في كل ضربة كان يتولد فيه سؤال قاتل:

لماذا أنا؟

كيف يمكن أن تكون الحياة بهذه القسوة؟

كيف يصبح الإنسان آلة للطعن والقهر بلا رحمة؟

لم يكن لديه سوى إرادة حطمتها الضربات، لكنه رفض أن تهزم روحه.

رغم الألم، ظل يحمل في داخله نارًا متقدة، رغبة انتقام لا تهدأ.

في داخله عاصفة غضب تهدد بأن تنفجر في كل لحظة،

يستجمع ما تبقى من قوته ليقاوم، ليصمد،

ليحفر بدمه شهادة عن وجع لا يُنسى، عن ظلم لا يُمحى.

كل لحظة في السجن كانت صراعًا لا ينتهي،

مع المعذبين، مع الجدران، مع نفسه،

حتى صار الصوت الوحيد الذي يسمعه هو صدى انتظاره للعدالة،

صوت حلمه بأن تشرق الشمس عليه يومًا بعيدًا عن هذه الظلمات التي لا ترحم.

بعد عدة أيام من الضرب المتواصل نُقل إلى زنزانة عزل.

مكان لا يسمع فيه سوى صدى أنينه

لا يرى سوى جدران مبللة تنطق بالوحدة والخواء.

لم يكن العزل مجرد مكان منعزل بل كان عقابًا متدرجًا

هجومًا على العقل قبل الجسد.

لا ضوء يزيّن القبو إلا وهج خافت يأتي من فتحة صغيرة فوق الباب الحديدي،

يلقي بظل قاتم على وجهه المنتحب.

الهواء هنا أثقل والهدوء أشد إيلامًا،

كأن الصمت يشكل جرحًا غير مرئي،

ينخر في الروح أكثر من القضبان الحديدية.

صراخ فجأة في الممر، خطوات تقف قرب الباب، همسات لا تُفهم،

كلما حاول أن يصرخ كانت الصرخات تخنق في حلقه،

حتى تاه صوته وسط صدى الحجرة الكئيبة.

كانت الأسئلة تأتي متقطعة بأصوات صارخة أو همسات حادة:

"ليش بتظل ساكت؟ مين بيحميك؟

شو بدك من هالبلد؟

كم واحد معك؟

من وين عم تجيب مصاري؟"

لم يكن السؤال مهماً...

الإجابة لم تكن تُرضيهم،

كان الهدف هو أن يشعر بالعجز،

أن يذوب، أن ينكسر، أن يفقد كل شيء من إنسانيته.

في بعض الأيام، كان يُجرّ إلى غرفة التحقيق،

مكان تفوح منه رائحة العرق والدم والدموع المندمجة.

هناك، كان الألم يتضاعف، ليس فقط من الضرب، بل من النظرات التي تخترقك،

من كلماتهم الجارحة التي تقطع أوصالك قبل أن تلمس جلدك.

"مين معك بالشارع؟

بدّك تحكي أو نكسر ضهرك؟"

كل ضربة تحمل بين طياتها موتًا صغيرًا،

كل كلمة تُقال كانت بمثابة سكين يُغرز ببطء في أعماقه.

الوجه الذي كان يراه في المرآة بات شاحبًا، مكفهرًا،

عيناه المليئتان بالكراهية والغضب تترجم كل معاناة الأيام.

رغم كل شيء، كان هناك شيء في داخله لا يُقتل،

غضب أعمق من الألم،

رغبة تنتفخ كل يوم بالانتقام،

بإثبات وجوده،

بأن يصمد مهما كانت الوحشية.

في العزل وسط ذلك الصمت الثقيل،

تعلم كيف يهمس لنفسه بأقسى الكلمات،

كيف يحفر في ذاكرته صور الجلادين،

كي لا ينسى، كي لا يُمحى.

"لن أنسى، لن أغفر، لن أخضع هذه الأرض لن تبتلعني

سأخرج، وسأترك صرختي تشقّ الطريق لأولئك الذين فقدوا كل شيء قبلي."

هكذا نزار، في أعماق الظلام،

يُعيد ترتيب روحه المكسورة،

يحفر بقلبه من جديد طريقًا من الألم إلى النور،

طريقًا إلى حريته التي تبدو بعيدة، لكنها ليست مستحيلة.

همس الفجر

في ظلمة الزنزانة التي لا تعرف إلا لغة الألم، برز وجهٌ غريب،

سجان لا يشبه غالب رجال هذا المكان،

لا يصرخ بصوت الجلاد ولا يجلد بوحشية الوحوش،

يحمل بين عينيه ثقلًا لا يُفهم،

كأنّه يحمل أسراراً دفينة لا يسمح لها بالانفجار.

يأتي بصمتٍ يخترق صمت العتمة،

خطواته ثقيلة لكنها لا تصدح كصفير السياط،

كان يشعر به قبل أن يسمع صوته،

همس يلتقطه كنسمة في ليلة قارس برودتها،

قال له بصوت منخفض، كأنه يخشى أن تلتقطه جدران السجن:

"الفجر قادم... لا تستسلم،

حتى لو امتد الليل، هناك نورٌ خلف الأبواب المغلقة."

لم تكن كلمات مجرد حبال تُلقى في الفراغ

بل كانت قطرات ماء نادرة في بئر مظلم دفءٌ خفيٌ يحاول عبور جدار الألم.

بين فصول القسوة والعذاب يطل فجأة كطيفٍ غامض

يحمل قليلاً من الماء البارد أو قطعة خبزٍ جافة مهملة

يرميها على الأرض أمام نزار،

كأنها رسالة صامتة تقول: "لم تُمحَ بعد... أنت ما زلت هنا."

لكن سرعان ما يعود إلى القسوة التي تُجمد الدماء،

يُطيح بجسد نزار بضربة غادرة ويصرخ كمن يفرغ غضبه الذي يختنق به،

كأن عذابه الشخصي يتجسد في ضرباته الثقيلة.

كانت اللحظات بين الرحمة والقسوة أشبه برقصة بين شظايا الزجاج،

يكاد يفقد توازنه عندما يرى في عيني السجان ذلك الألم المكتوم ذلك الصراع الداخلي الذي لا يُفصح عنه.

ذلك الوجه المختلف كما ظهر فجأة اختفى فجأة ترك خلفه فراغاً أثقل من أي قيد وصمتًا يشبه ارتطام الأمواج على صخور الزمن،

موجة ألمٍ جديدة تتسلل إلى قلب نزار تزيد من الجرح الذي لم يلتئم.

في غياب ذلك السجان،

تعلم نزار أن هناك عالمين داخل هذا الجحيم،

عالم يتخلله نفحات رحمة خافتة،

وعالم قاسي لا يرحم إلا ذاته.

تتردد في ذاكرته عندما كان يظهر يأتي حاملاً رسالة مبهمة عن صبرٍ قادم،

عن فجر لا يُمكن له أن يغيب

لكن.... دائمًا يغادر، تاركًا وراءه ثقل الوحدة،

وهمسًا يتردد في أروقة القلب:

"الصبر... الصبر... الفجر قادم."

صوت من الحافة

مرّت الأيام كسيل هادئ يتسلل عبر صدوع الصخر

لا يحتفظ بشكله ولا يحمل صوته يترك أثرًا باهتًا على وجه الزمن.

في الزنزانة لا وجود للوقت لا شيء سوى صدى الصرخات التي تتكرر بلا نهاية،

ونفحات الرطوبة التي تلتصق بالجدران

تهرب من الذاكرة كما تهرب الذكريات من القلب.

مرّت ثلاثة أيام، ثم سبعة، ثم ثلاثون، ثم مئة، ثم سنوات.

اختفى العدّاد،

تلاشى الزمن ولم يعد للنار إلا بقايا رماد يتناثر في فراغٍ لا حدود له.

في السجن لا فصول ولا مواسم

لا شتاء ولا صيف،

برودة تقرّب الموت من العظام وحرارة تعصر الروح.

رائحة العفن تشبثت بالجدران

الجسد صار عبئًا أثقل مع كل يوم.

ممددًا على الأرض الباردة

محاولا أن يتشبث بوميض من نور من الماضي،

صورة طفولته في الشارع اسم الحي الذي نشأ به،

رائحة المطر ضحكات أمه وأخته،

كمن يحاول الإمساك بالهواء

كل شيء يتلاشى و يبقى الألم

الألم فقط.

في ليلة مظلمة فتح الباب الحديدي فجأة

اندفع جسد شاب مصاب إلى الزنزانة

يئن بصوت خافت، يكاد لا يسمع

تسلّل ضوء خافت من الممر كاشفًا وجهه المدمى النازف،

في ملامحه كل شيء مألوف

حدّق نزار به بدهشة، كأنه يرى طيفًا من الماضي

اقترب بخطوات متثاقلة ركع بجانبه وهمس:

"كرم؟"

لم يجب كرم،

أنفاس متقطعة، رأس مطأطئ كأن الاسم جرح غائر في قلبه.

همس نزار مرة أخرى،

بصوت مكسور: "كرم... أخي؟"

رفع كرم عينيه ببطء عيناه المتورمتان تحملان أثر الألم

صاح نزار مفجوعًا:

"حتى... حتى أنت؟! حتى أخي؟!"

سقط على الأرض بجانبه كأن ثقل العالم كله استولى على قلبه.

قال يعتصره الندم:

"تركتك في البيت، كنت تلعب بسيارة بلاستيكية...قللتك ما تطلع...

قللتك رح أرجع."

لكنه لم يرجع

غادر المظاهرة، وغادر معها كل شيء.

انفجر بالبكاء كطفل مجرّد من صوته :

"سامحني... سامحني يا كرم، والله ما كان لازم..."

في الظلام الدامس فتح كرم عينيه ببطء نظر إليه بدهشة قائلاً:

"نزار؟"

قال الاسم كما لو أنه يوقظ ذكريات من زمن بعيد:

"نزار... أخي الكبير؟"

احتضنه نزار بقوة احتضان سنوات الضياع،

احتضان الذنب، والدمع، والألم.

وسط الجدران المتعفنة انكسر الصمت فجأة.

همس كرم بصوت متهدج:

"ما كنت متخيل نلتقي هون... تحت هاد السقف."

رفع عينيه نحو الأعلى وتنهد:

"هاد مو سقف السجن، نزار... هاد سقف الجحيم."

تلاقت دموعهما في ظلمة واحدة في لحظة واحدة

انكسر السقف

لوهلة شعرا معًا أن الحياة رغم كل ما سقط وما تهدم

لا تزال تعرف طريقها في أعمق أعماق الجحيم.

رفع نزار عينيه نحو كرم

صوته خافت كهمس الريح في ظلال الغياب:

"شو صار بأبي؟ وأمي؟ وأختي؟"

توقف كرم قليلاً كأن الكلمات ثقيلة عليه،

ثم نطق بحسرة موجعة:

"طلعت... ما بعرف شي عنهم."

عاد الصمت يلفّ الزنزانة ثقيلًا كجدار لا يُخترق

بين هذا الصمت وبين تلاطم الألم والأمل تمسك نزار بصوت أخيه

كأنه آخر شُعاع ضوء يسطع في عتمة لا تنتهي.

تلك اللحظة تعاهدت معهما

أن الصمود ليس فقط في مواجهة الظلام،

بل في أن تبقى الروح حية، تتشبث بالذكر بضوء لا يخبو مهما طال الليل.

وسط كل هذا الخراب والدموع

بزغ شعاع لبطل جديد لا يُهزم لا يُكسر

قلبه ينبض بحكاية لا تزال تُروى...

وجه في الظلام

حين ينام الآخرون يستيقظ هو ينكمش على نفسه في زاوية الزنزانة،

يعود بذكريات الماضي الجميلة يراها عند حافة الضوء

تمشي كما اعتاد أن يراها في الصباحات الدمشقية

تحمل كتبها في يد وفي الأخرى شيئاً لا يُرى:

الحياء، الخوف، الكبرياء... أو ربما بقايا الربيع.

لم تكن له ولا كان لها.

بينهما شيء لم يُسمّ، ولم يُكتمل.

حين يتبخّر الصوت ويضيق الأمل،

يعود اسمها لا ينطق به، يخاف أن يلوّثه،

يسمعه في داخله،

كأنها تناديه من الشرفة نفسها التي اختبأت فيها ذات مساء

كي لا تراه ....وتراه.

يتخيل وجهها لا كما هو بل كما يجب أن يكون :

مضطرب، قلق، وربما يائس.

هل علمت أين هو؟ هل تبكيه؟

هل تذكر آخر مرة ابتسم لها دون أن يقصد؟

قال لنفسه في تلك اللحظات الهشة :

"إذا طلعت من هون، رح قُلها كل شي... حتى عن خوفي."

ضحك بصوت خافت خوفاً أن يسمعه الحرس أو يسمع نفسه.

"بس إذا رجعت شوفها...هاد اذا طلعت"

وجهها كان نجاته الأخيرة.

صوتها وإن تخيّله كان أقرب للسلام من كل الأدعية.

سأله كرم ذات ليلة:

"شو اللي عم يخليك ما تنهار؟"

أجاب دون تفكير:

"في وجه... عم يزورني كل ليلة."

سكت ولم يشرح أكثر ....

لم تكن كما تُعرّفها الحكايات

بل كانت احتمالًا مؤجّلًا، ظلّ فكرة هاربة

امرأة تقف عند حافة النظر ثم تغيب...

تاركةً أثرها كنسمة خفيفة على صدر القلب.

في ليل الزنزانة لم يكن ثمة ما يملكه سوى ذاكرتها.

يتذكرها كما يتذكّر المرء صوت المطر الأول

أو عبير ياسمينة قُطفت قبل أن تكتمل.

كان يخاف على وجهها من النسيان فيردده داخله

كما يُردد المؤمن دعاءً في العتمة

خشية أن تذوب ملامحها،

أو تنطفئ

يتساءل كلما ضاقت الجدران:

"هل تعرف أني هنا؟ هل يوجعها الغياب كما يوجعني؟

هل كانت تملك اسمي حين سقط في يد الغياب؟"

ذات ليلة، تسلل إلى ذاكرته بيت من نزار قباني،

كان قد قرأه منذ زمن بعيد:

"أحبك جداً... وجداً وجداً وأعرف أني تورّطت جداً..."

أدرك كم كان تورّطه صامتاً، عميقاً،

كمن غرق دون أن يلوّح لأحد في ليلة أخرى،

هبط في رأسه صوت محمود درويش هامساً كنبض بعيد:

"أحنّ إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي..."

بكى.

لا من أجل أمه وحدها بل من أجل كلّ ما فقده من حنان الحياة...

من أجل وجهها، الذي صار في هذا الليل وطناً كاملاً، لا يُقصف.

كانت صورها تأتيه كقطرات ماء على صخرة محترقة

كلما أغمض عينيه، رآها تقترب... لا تبتسم، لا تتكلم

تنظر إليه كأنها تعرف كل ما حدث.

عاد إلى صمته موقنًا أن هناك ما هو أعمق من الحب وأقسى من الحنين

أن تشتاق لمن لم يلمسك يومًا......ينقذك من موتك البطيء.

في عتمة الزنزانة لا شيء يُشبه الوقت

الساعة بلا عقارب الليل بلا نجوم

الأيام تتكرر كأنها صفحة واحدة لا تُطوى

كلما أغمض عينيه رأى وجهها

كانت ملامحها تظهر له .....لا كما عرفها

بل كما تخلّقها ذاكرته المرتبكة صافية مترددة

في عينيها حزن قديم... يشبه حزنه.

كان يستحضرها كأنها صلاة سرّية، لا تُجهر،

خوفًا من أن يسمعها الحارس أو يُفسدها السقف.

في ليلٍ طويل سمع بيتًا قرأه مرة ونسيه ألف مرة:

"كلما اشتقتُ إليكِ...تَقطّعت أوصالي.... واستعذتُ بالشِّعر من جُنوني..."

همسَ البيت لنفسه كأن فيه خلاصًا أو عزاء مؤقتًا

كان يكتبها داخل روحه دون ورق ودون قلم

كل سكون في جسده كان هجاءً صامتًا لغيابها

كل نبضٍ كان يناديها دون صوت.

تحت السقف كانت صورتها ترفرف في ذاكرته كقصيدة لم تكتمل

كأنها ما تبقّى له من هواء، ومن حياة

أغمض عينيه،

رآها واقفة عند ضفة نهر بارد تنظر إليه دون أن تبتسم

دون أن تبتعد كأنها تقول:

"أنا هنا، لكنك لست معي..."

قال في داخله:

"أحبكِ... بصمتِ هذا الجدار بضيق هذا القيد، وبمرارة هذا الغياب."

لم يكن السجن ما يخيفه، بل الفكرة: أن يخرج يومًا ولا تجد له مكانًا في قلبها.

الذي عبر دون وداع

ما الذي يجعل اثنين يقتربان في العتمة؟

ليس الكلام، ولا المصادفة، ولا حتى الحاجة

شيء غامض،

يشبه التعرّف البطيء على ذاتك في مرآة مكسورة

حيث لا ترى ملامحك دفعة واحدة،

بل على مراحل...

عبر الشقوق والخدوش، تقف أمامك صورة لا تكتمل،

تشبهك أكثر من أي وقت مضى.

في أيام السجن، لم يكن كرم مجرد رفيق، أو مجرد أخ

كان نافذة صغيرة في الجدار تطلّ منها الحياة دون إذن،

بصوته الهادئ ونظراته الثابتة

صار أقرب إلى ذاكرة حيّة داخل العدم.

كان حضوره يشبه الضوء المتسلّل من شقوق الباب،

لا يطرد الظلمة تمامًا لكنه يجعلها أقل قسوة

أقل قبحًا وأقل عزلة

كان يندهش أكثر كل يوم!!!!!

كيف لهذا الصبي الذي تركه قبل سنوات يلهو في زوايا البيت

يضحك على أصوات الكرتون

أن يتحوّل إلى رجلٍ بهذه البصيرة؟

كان يصغى إليه لا كأخ أكبر بل كتلميذٍ متأخر على درس الحياة.

يتحدث كمن مرّ في النار وخرج منها ببعض المعاني

يزرع الأمل قطرة قطرة، يوزّع الصبر مثل فتات الخبز على الأرواح الجائعة.

قال له ذات مرة، وهو يضغط على خاصرته المتألمة:

"كل ليلة تُنجب فجراً، حتى لو تأخّر بس بدك تصبر،

وتضلّ عيونك مفتوحة على جهة الضوء."

تحدثا كثيرًا بصوت منخفض بقلوب مفتوحة عن دمشق كما كانت،

عن الطفولة في الحارات القديمة،

عن رائحة الياسمين التي كانت تتسلل إلى الغرف في المساء

عن الكتب التي قرآها ولم تكتمل

عن الأغاني التي سمعاها من مذياع قديم في المقهى القريب من الجامع الأموي

عن المظاهرات الأولى، الأحلام الأولى، والخيبات التي لم تكن نهائية بعد.

كان بين الحديث والحديث يسقط صمت طويل،

لا يخيف بل يُشبه حنانًا صامتًا أو صلاة لا تُرفع بصوت

يتكلم وكأنه يؤمن أن الحكايات تُبقي الإنسان واقفًا.

كل ذاكرة تُروى في الزنزانة تُرمّم جزءًا منك.

كان نزار، في صمته يتعلّم كيف يُقاوم دون أن يصرخ

كيف يحتفظ بشيء من نفسه رغم العتمة والضرب والخذلان.

ذات صباح رمادي ثقيل فتّشوا الزنزانة نادوا اسم كرم...

نهض بخفة مفاجئة كأن جسده لا يحمل كل هذه الجراح،

ابتسم لنزار ابتسامة صغيرة لا تشبه الوداع ولا تشبه البقاء.

وقال: "لا تنم كتير... الحلم ما بيجي لحالو."

خرج... ولم يعد.

أمضى نزار ليلتين وهو ينتظر صوته

كل خطوة في الممر كانت احتمال عودته

كل همسة وراء الباب كانت رجفة أمل.

حتى جاء الليل الثالث،

اقترب منه السجين العجوز

صوته كان شبحًا:

"لا تنتظره... لقد سقط هناك."

سقط

كلمة خفيفة... لكنها كالصاعقة

لم يقل له: مات .....لم يقل له: قُتل

قال فقط: سقط.

كأن كرم كان واقفًا في وجه الريح، وفجأة...

انكسر

كأن جسده لم يعد يحتمل السقف،

كأنه ضاق حتى ابتلعه

أدار نزار وجهه نحو الجدار ووضع جبهته عليه.

بكى دون صوت لأنه لا يملك سوى الدمع الصامت

همس كما لو كان يخاطبه بين الجدارين:

"ما كان بيننا وعد، بس قلبي اعتاد ظلّك...كيف كمل هلق،

أنت اللي كنت تعلّمني كيف أتماسك؟"

استعاد كلماته واحدة تلو الأخرى

أعاد ترتيبها في داخله كتراتيل نجاة،

كوصية،

كحبّ غير مكتمل.

قال لنفسه وهو يضم قبضته إلى صدره:

"سأخرج... لا كي أعيش،

بل كي أقول إنك كنت هنا سأرويهم عنك... عن كلامك، عن صوتك،

عن نظرتك التي لم تنكسر."

منذ تلك الليلة، صار السقف أكثر انخفاضاً

الجدار أكثر قسوة

العتمة... أكثر عمقًا، وأكثر صمتًا.

اشتعل شيء في صدره لا يمكن إطفاؤه

شيء يشبه الإيمان... لا بالخلاص، بل بالواجب.

أن يكون شاهدًا على من رحلوا دون وداع.

لم يكن كرم مجرد أخٍ فُقد في العتمة

صار في ذاكرة نزار مثل ضوءٍ يُرى من بعيد كأنه النجم الذي لا يُطفأ،

الذي يهديه الطريق كلما ضلّ الاتجاه

يسأله في كل خطوة هل ما زلت تذكر لماذا بدأت؟

مع كل صرخة في الممر

كل باب يُفتح ويُغلق كان يردّد في داخله بصمتٍ قاسٍ:

"لن أنسى، يا كرم... لن أنسى، أعدك أن أخرج لا كي أهرب من الجحيم،

بل كي أشهد على سقفه."

سماء لا تراها العيون

لم يكن رحيل كرم مجرد غيابٍ عابر،

بل انكسارًا عميقًا هزّ أركان نزار بكل ما فيه.

حين تركه بلا وداع ترك معه شيئًا في قلبه

شيء لا يعرف كيف يُقال ولا كيف يُنسى.

الزنزانة التي كانت ذات يوم مكانًا للانتظار

صارت الآن حفرة مظلمة يسقط فيها كل شيء حي بداخله،

كل أمل، كل نبض، كل شريان كان ينبض بالحياة.

الهواء داخل تلك الزنزانة كان ثقيلاً كأنفاس الموت،

رائحة الرطوبة، الدم، العرق، والوجع،

امتزجت كلها في مكان لا يعرف الرحمة.

في كل زاوية ظل، في كل زاوية حائط صدأ،

صوت صمت يصرخ بألم لم يُسمع،

وصمت لا يرحم،

كالصحراء القاحلة التي تبتلع كل شيء.

كل صباح يبدأ بنفس الجحيم،

صياح السجانين لا يرحم، يخترق جدران العتمة،

يوقظ جرحًا جديدًا على جسده الذي بدأ يذوب كالشمع.

يدخل أحدهم وجهه قاسي كالصخر عينه لا تعرف الرحمة،

يمسك بعصا خشبية يضرب بلا حساب بلا ذنب

حتى تحولت أصوات الضربات إلى لحن قاتل يتكرر بلا نهاية.

لا يكاد الجسد يستعيد توازنه حتى تبدأ موجة جديدة من الضرب،

يحاول أن يثبت أنه ما زال حيًا، ينهض، يسقط، يقاوم،

يتشبث بنقاوة روحه التي لم تذبل بعد.

كل ضربة تضرب في جسده تترك أثرها العميق،

تشعره أن كل جزء منه يتفتت، لكنه لا يستسلم.

السجان يقبض على رقبته، صوته صارخ في أذنيه:

"اعترف عن أخيك، عن الثورة، عن كل شيء!"

لكنه لا يجيب، يختار الصمت،

الصمت الذي صار سلاحه، درعه الوحيد،

تتصاعد الضربات، والآلام الكهربائية تسري في أوصاله،

لكن روحه تصر على الصمود، لا تذوب، لا تنكسر.

حين يهب الليل يخيم على الزنزانة تخفت خطوات الحراس،

تشتد عتمة المكان ويزيد شعوره بالوحدة والاختناق،

في داخله يطفو ظل كرم صوته يُعيد له الصبر:

"كل ليلة تُنجب فجراً، لا تفقد الأمل."

الفجر يبدو بعيدًا، والليل طويل بلا نهاية، والبرد يحفر عميقًا في عظامه.

الجسد يذبل والروح تزداد قوة،

نار الانتقام تبدأ في الاشتعال داخله،نار لا تُطفأ لا تخمد ....

كل ضربة تزيد من اللهب في صدره،

الجسد يتلوى من الألم،

الروح تشتعل رغبةً بالانتقام،

يرسم قصيدته بلا قلم، يهمس:

"هذه السماء التي لا تراها العيون، سأرتقي إليها يوما ما."

رصيف العبور الأخير

صباحٌ باردٌ يخنق صمته، لا تذيب جليده العصافير

لا تخترق جدرانه خطوات الحراس.

أقدامهم تقترب بثقل لا يحمل رهبة،

بل ثقل من أنهكته سنوات من الخسارة والانتظار.

خطوات تزن على الأرض أكثر من أي شيء مرّ به نزار في حياته،

تمشي فوق ركام ما تبقى من بشرٍ حلموا، مثله،

بأن يكون لهم وطن، حياة، حرية.

نادوا اسمه بصوتٍ جافٍ كأن الكلمات نفسها حُرمت من دفء الفم،

لم يتحرّك على الفور.

رفع رأسه ببطء نحو السقف،

ذاك السقف الذي كان شاهدًا على صمته ودموعه،

على شهقاته المكتومة وخيباته،

عرفه كما يعرف الجرح العميق الذي لا يندمل.

عرف أيضًا وجه كرم، ذاك الوجه الذي لم يكن أكثر من أخ صغير،

يحمل في عينيه نبض الحياة رغم العتمة.

نهض نزار ببطء، كأن جسده المثقل بأعمارٍ من الألم

يرفض أن يتحرك.

أدار عينيه في زنزانته التي لم تكن مجرد مكان

بل ذاكرة مُختزلة في ظلام طويل.

غرفة عاش فيها عمرًا

لا يقاس بالأيام بل بالليالي التي لا تنتهي،

كأنها قبرٌ مُفتوحٌ على حياةٍ ما زالت تُدفن داخله.

نظر الى السقف،

كما لو أنه يبحث عن آخر شريان يربطه بالعالم الخارجي.

مدّ كفه، كأنه يودع صديقًا قديمًا كان هناك منذ البداية.

لحظة صمت طويلة بما يكفي لكتم كل ما لم يُقل.

همس بصوتٍ خافت لا يسمعه سوى قلبه:

"لن أسامحك... لكن لن أنساك."

فتح الباب ببطء دخل الحارس.

عيناه خالية من الحياة كأنهما مرايا عاكسة لأشباح مرت عليه

لا تعرف الرحمة.

نظر إلى الورقة في يده، ثم إلى نزار،

قال بصوتٍ رتيب: "انكتبلك عمر... طالع اليوم. عود آدمي."

ضحك ضحكة خفيفة ساخرة وهو يغلق الورقة بحركة يأس:

"مبروك الحرية... إذا لسا بتعرف شو معناها."

في الطريق إلى الخارج، سمع صرير الأبواب تفتح أمامه،

كأنه يحلم لكنه لم يستفق بعد.

كان يخشى أن تلتقطه نظرة، أن تنهشه ذاكرة،

أو يشدّه الحائط من روحه ليعود إلى المكان الذي لا يرحم.

كل شيء في الخارج بدا له أبعد من التصديق،

الضوء... آه، ذلك الضوء الذي لم يكن سوى غريب لا يعرفه بعد.

حين لمست الشمس وجهه أغمض عينيه

لا خوفًا بل دهشة

كأن روحه خرجت قبله وسبقته إلى النهار.

لم تكن الشمس ساطعة فقط بل كانت الحقيقة بحدّ ذاتها:

مؤلمة، مُبهرة، كاملة.

كل شيء يلمع،

حتى الغبار في الهواء بدا له كنثرٍ من ذهب.

مدّ يديه أمام عينيه يتساءل: "هل هذه يداي؟ هل هذا جلدي؟"

هو الذي نسي ملمس الهواء، ودفء النهار،

صوت الخطوات على الأرض الحُرّة.

أمامه سماء واسعة، بلا سقف. نظر إليها طويلاً،

كمن يقرأ قصيدة قديمة نسيها،

تسللت إلى أنفه روائح الخبز، والعشب، والشارع.

تلك الروائح التي كانت قبل زمن عادية،

صارت معجزات تُعيده إلى حياة قد تبدو بعيدة.

جاءه وجه كرم، كنسمة، كذكرى عنيدة:

"لا تخف من الوجع... أول ما تقبله، يخفّ."

كانت كلماته تردد في قلبه

فتح عينيه من جديد.

لم يعد ذلك السجين بل الرجل الذي سيحمل على ظهره كل من سقطوا.

رغم هذه اللحظة، ظل جزء منه هناك، ظل أو ندبة،

أو اسم لا يُنطق لكنه لا يُمحى.

مشى بخطى بطيئة كمن يعود من منفى داخلي لا يعرف إن كان سيتعرف على طريقه من جديد.

لم يكن الضوء كما تخيّله طوال سنوات الأسر.

لم يكن دافئًا بل مؤذيًا، كأن العالم تآمر على عينيه و على ألمه.

تعثرت خطواته على بلاط بارد غريب لا ينتمي إليه.

رفع يده ليحجب الشمس،

تذكر لحظة كان فيها طفلاً يركض تحت أشعتها مع كرم

يحملان رغيفًا ساخنًا من الفرن القريب.

أحسّ أن الزمن انكسر وأن الخارج ليس استمرارًا للداخل،

بل غربة أخرى من نوع مختلف.

في داخله، كان يعلم أنه لن يعود كما كان.

كان الضوء يتسلل نحوه كغريبٍ خجول، يمد يده دون أن يلمس.

مع كل خطوة نحو الخارج كان ينتزع نفسه من طبقة صلبة من الألم،

طبقة التصقت به كجلد ثانٍ.

الباب الحديدي الذي فُتح أمامه لم يكن مخرجًا فقط

بل صدعًا في جدار طويل من الظلمة.

أما الحارس الذي رافقه بصمت نظر إليه بنبرة لا تخلو من غرابة:

"انكتبلك عمر جديد... عود آدمي، وخلّي الماضي وراك."

لم يرد .....لم يكن في وسعه أن يختصر ما عاشه بجملة أو يفسر كيف صار الحزن جزءاً من نبضه.

حين خرج، ضربه الهواء كصفعة،

رائحة الحياة كانت قاسية.

الشمس التي طالما تاق إليها بدت كأنها لا ترحب بل تراقب

الناس يمشون، يضحكون، وكأن شيئًا لم يحدث.

رأى وجوهًا أخرى،

خلف كل وجه حيّ كان هناك وجه غائب.

وقف للحظة في الزاوية لم يتقدّم.

شعر أن الضوء يوجعه، وأن الحرية تشبه الجرح المفتوح في قلبه.

همس صوت خافت: "أنت خرجت... لكنك لم تعد بعد."

سار ببطء، كمن يعود من منفى داخلي،

لا يدري هل سيعرف الطريق.

قبل أن يتلمّس خطواته الأولى في هذا العالم الجديد.

تسائل سبب غامض ومؤلم لخروجه.

مرسوم العفو الذي صدر قبل أيام قليلة والذي أعلن كإعلان نصرٍ أو بداية عهد جديد،

لم يكن الا ورقة تحمل في طياتها خداعًا قاسيًا.

مرسوم اعتُبر عند صدوره كبصيص أمل، بوابة حرية، بداية عهد جديد

لكنه لم يكن سوى قفص حديدي او كذبة ضمن قصة طويلة.

شمله ذلك المرسوم كواحد من مئات بل عشرات من ضمن اعداد لا تعد و لا تحصى.

كرقمٍ ضمن قائمة طويلة من الأسماء التي قررت السلطة "تحريرها"

لأسباب سياسية، دبلوماسية،

أو حتى لأجل تحسين صورتها أمام العالم.

كانت الكلمة الرسمية تقول إن المرسوم يشمل من

"لم تثبت عليهم تهم خطيرة أو متعلقة بأعمال إرهابية"

كأن العدل نفسه قد تم تحديده بمعايير مشوهة

في حين ترك الآخرون في زنازينهم يموتون ببطء أو يُكسرون

حتى قبل أن تنطق ألسنتهم.

كان يعلم، كما يعلم الجميع

أن المرسوم لم يكن سوى محاولة لإسكات أصوات الحراك،

فصل ضوء صغير عن الظلام الدامس الذي ما زال يخيم على المدينة.

حين تم استدعاؤه للخروج شعر وكأنه ورقة تُرمي في وجهه لا أكثر،

طُلب منه أن يكون مثالًا حيًا على التسامح الذي لا وجود له،

وأسطورة "الفصل بين الخير والشر"

التي لا تحمل في جوهرها سوى الظلم.

في الزنزانة، رأى بأم عينيه كيف تعذّب رفاقه ،

كيف اختفوا تدريجيًا من المشهد،

كيف بقي معلقًا على حافة ذلك العبور الأخير،

حراً على الورق فقط.

كانت مفارقة الألم، أن الحرية التي حُرر من أجلها ت

حولت إلى جرح أعمق، إلى خيانة مزدوجة.

الدماء التي سالت على الأرض، والدموع التي جفت في العتمة،

لم تكن سوى تذكير بأن الحرية ليست مجرد كلمة تُكتب في مرسوم،

بل فعل يُنتزع بالدم والكرامة.

لم يكن خروج نزار نهاية القصة،

بل بداية جديدة لصراع أعمق داخل نفسه،

صراع يحمل وجع النسيان، ومرارة الانتقام.

خرج من الزنزانة، لكن ثقل الظلمة بقي معلقًا به،جرح لم يندمل،

ايقن منذ تلك اللحظة أن الفجر آتٍ، حتى لو بدا بعيدًا.

خرائط بلا أبواب

لم يعرف أن الغربة تبدأ من أول نفس

خرج نزار، لكن المدينة لم تفتح له ذراعيها، بل رمقته كغريب.

كأنها لا تذكر اسمه، كأنها شُفيت منه.

مشى في الأزقة القديمة... تلك التي كانت تحفظ خطواته.

كل زاوية كانت تناديه باسمه، لكنها الآن صامتة...

صامتة حدّ الخيانة كأنها طوت صفحاتها عنه،

ونبذته كما تُنبذ ذاكرة منتهية الصلاحية

حاول أن يجد الطريق إلى البيت، ذاكرته تقوده،

كلما اقترب، بدا الحيّ أكثر غربة، كأن بينه وبينه ألف عام

الجدران التي كانت شاهدة على الطفولة لم تعد سوى ثقوب سوداء

النوافذ مخلّعة، والأبواب مفتوحة على هواء لا يسكنه أحد.

وقف أمام الركن الأخير، حيث كان بيت أهله،

لم يرى شيئا سوى الفراغ

لم يكن هناك شيء... ولا حتى ركام.

فقط أرض عارية، كأنها لم تعرف جدرانًا يومًا

اقترب، انحنى، لامس التراب بيده،

بكى... لا كطفل، بل كمن خسر اللغة كلها،

لم يبقَ له سوى اللمس.

همس كأنه يناجي الموتى:

"هنا... كان صوت أمي يوقظني...وكانت أختي تصنع الشاي،

وتغني بصوتٍ خافت

كانت الشمس تدخل بتؤدةٍ من النافذة...

من أطفأ الشمس؟ من أسكت الأغاني؟"

سأل الجيران أو من تبقى منهم

بعضهم لم يعرفه وبعضهم أشاح وجهه

كأن الأسى لا يُحتمل، كأن الاعتراف موت.

قال له عجوز عند طرف الحارة، بصوت مبحوح:

"قصفوا الحيّ، مات الكثير... وغادر من استطاع."

لم يسأل عن التفاصيل... لم يحتملها.

مشى بعدها بلا اتجاه كان يسير كما لو أنه

يبحث عن جسده القديم

عن مكان يمكن أن يقول فيه: "أنا هنا... أنا ما زلت."

لكن الأرض كلها بدت له غير معنية

كأنها تتابع شؤونها دون اكتراث لمن عاد أو من ضاع.

جلس قرب حائط نصف مهدّم أسند رأسه عليه،

نظر إلى السماء الرمادية الثقيلة.

رأى طيفًا من الغيوم يشبه ظلّ أخيه كرم...

همس لنفسه:

"لم ينجُ أحدٌ من الحرب...حتى الذين خرجوا أحياء، خرجوا بلا بيوت، بلا أسماء، بلا أبوّة ولا دفء."

أغمض عينيه، في مساحةٍ بين النوم واليقظة

مرّت كل الأصوات القديمة في رأسه، كأنها تودّعه.

سأل في داخله:

"هل أنا الآن بداية جديدة... أم مجرد بقايا رجل خرج من تحت سقف الجحيم؟ وهل يكفي أن تبقى حيًّا... كي يُقال إنك نجوت؟"

لكن الجواب لم يأتِ...

الجدران صارت صمّاء، والأرض لم تعد تحفظ آثار القدم.

وسط الركام، خطر في باله وجهها لم يكن يتذكّر ملامحها تمامًا،

لكن شيئًا منها بقي فيه...

طريقة نطقها لاسمه، نظرتها حين كان يسهو في الكلام

الصمت الذي كانت تتركه بين جملتين، وكأنه دعوة للغوص أعمق.

همس:

"أتعلمين؟ المدينة لا تشبه نفسها، وأنا لا أشبهني...لكنّك،

رغم كل شيء، ما زلتِ تشبهين الوطن بعض الأماكن تُبنى من حجر، وبعضها من صوتك."

شعر للحظة أنها قريبة، كأنها واقفة خلفه،

تضع يدها على كتفه وتقول: "أنا هنا."

لكن حين التفت، لم يكن هناك سوى الريح

رياح دمشق التي لم تعد دافئة.

أغمض عينيه،

تدفّقت الذكرى كما يتدفّق النور من نافذة منسيّة

رآها تمشي نحوه بثوبها الأزرق،

ذلك الذي كانت ترتديه يوم ودّعته على عتبة الحلم

لم تقل شيئًا... فقط نظرت، وكأنها تسأله: "أعدت؟"

لم يعرف ما يقول فمن يعود بلا بيت... وبلا قلب كامل؟

فتح عينيه فجأة، لم يجدها

لا ظلّ، ولا ثوب، ولا نظرة

فكّر:

"ربما الحب، مثل المدن، لا ينتظر طويلاً... وربما أنا،

منذ خرجت، ما عدت أصلح للانتظار."

حين كانت الأبواب مفتوحة

في تلك الليلة، كانت السماء صافية بشكلٍ غريب،

بلا طائرات، بلا صرخات، بلا موتٍ يتسكّع في الأعالي.

سكنت الريح ،

كأنّها خائفة من أن تفسد هذا الصمت الذي بدا ككذبةٍ مُتقنة.

بدا الهواء خفيفًا على غير عادته،

كأنّ المدينة المذبوحة قررت أن تتنفس للحظة،

لا لتعيش... بل لتشهد.

جلس نزار في ظل صخرةٍ كبيرة، انكمش جسده بين الركبتين

أسند رأسه إلى الحجارة الباردة، وأغمض عينيه.

لم يكن نائمًا، لم يكن يقظًا،

كان هناك فقط ، كأنّ الزمن قرر أن يُمهله بعض الوقت

ليعود... لا لينجو.

عاد إلى الحيّ القديم، الحيّ الذي يشبه خريطة قلبه.

رأى نفسه طفلًا يركض في الأزقة،

يلاحق صوت أمه وهي تناديه من شباك المطبخ.

عاد إلى الباب الخشبي الذي كان يُفتح بصوتٍ يميّزه من بين مئة باب،

الباب الذي كان إذا صريره غاب... غابت معه الطمأنينة.

عند المدخل، كانت أمه تجلس، بيدها مكنسة،

عيناها تمسحان غبار الحيّ كما لو أنّه غبار الروح.

كانت تقول له بنبرة لا تُنسى:

"يا نزار، ما في أغلى ما في القلب... بس خلّي بلاط البيت يبرق كمان."

كان يضحك حينها، يركض إلى الداخل،

يمرّ من غرفة الجلوس التي تنام فيها ذاكرة العائلة على الجدران.

الأب بالشال الأبيض، ينظر بصرامةٍ رقيقة.

الأخت بفستانٍ أزرق في حفلتها المدرسية الأولى،

تبتسم كأنّها لا تعرف أنّ البلاد ستبتلع الأحلام.

كرم، كرم في كل الصور، يضحك

كأنه وُلد ليحمل عن الجميع ثقل البيت وثقل الهمّ.

تذكّر أباه، الرجل الذي لا يقول كثيرًا،

لكنه حين يتحدث، تُصمت الجدران.

كان لا يصرخ إلا إذا انقطع صوت فيروز من الراديو.

قال له مرة، حين كان نزار صغيرًا ويعبث بمفتاح التردد:

"إذا ضاع صوت فيروز... ضاعت روح هالبلد."

يجلس عند الشباك كل صباح،

يُقشّر برتقالة بيدٍ ويمسك الراديو بالأخرى، ويقول بصوته الخافت:

"الدنيا ما بتنعاش بلا طعم... ولا بلا ذاكرة."

تلك الليلة، دوّن نزار في دفتره المهترئ:

"بيتنا كان صغيرًا، لكنه يسع ألف حب، ألف نغمة،

ألف ضوءٍ من عبد الحليم وفيروز.

كان فيه دفء لا تصنعه المدافئ،

بل تصنعه أمي... بين الجدران، لا كجسد، بل كضوء."

ثم عاد، كما يعود كل جرح، إلى تلك اللحظة التي لم تنتهِ في ذاكرته.

عاد إلى يومٍ عاد فيه ولم يجد البيت،

ولا الصور، ولا الباب، ولا الصوت الذي كان يفتح له المساء.

وجد الركام، الغبار، رائحة الرماد، وبقايا حياةٍ انطفأت فجأة.

قال له أحد الجيران، بصوتٍ لا يدري إن كان يواسي أو يُجهز على ما تبقى منه:

"قصفوه العصر... أبوك استشهد، وأمك كانت بالمطبخ."

لم يقل شيئًا. لم يكن هناك لغة قادرة على استقبال ما سمعه.

مشى وحده في الحيّ، كأنّ بين ضلوعه مقبرة لا يُسمع فيها بكاء.

جلس حيث كانت أمه تجلس، على الدرجة الأولى للمدخل،

مرّر يده على الأرض، كأنّها وجهها،

كأنّ الذاكرة صارت الوسيلة الوحيدة ليشعر أنّه كان حيًّا يومًا.

فتح دفتره وكتب: "من بقي لي؟

صوت أبي حين يُعاتب الراديو، ابتسامة أمي خلف بخار الطنجرة،

ضحكة كرم حين يخترع لعبة من لا شيء،

وجناح ... ذلك الجناح الذي لم أحتضنه بما يكفي قبل أن يسقط."

بقي هناك طويلاً، بين ركام الذاكرة،

بين بقايا الجدران التي كانت تنطق بحضن، بصوت، برائحة قهوة.

بقايا رجل، وبداية بندقية

في الأيام الأولى بعد خروجه، لم يكن نزار يملك سوى جسده

روحه، بقيت خلف القضبان، أو تحت التراب، أو معلقة في سقف الزنزانة،

حيث ودّع كرم دون وداع.

كان يمشي في الشوارع مثل غريبٍ نجت منه الحياة، لا يحمل أوراقًا ولا وجهًا واضحًا،

كأن الزمن ذاته قد غادره، ولم يترك له سوى ظلٍ يتبعه.

لم يسأل كثيرًا

لم يحتمل الأسئلة لكنه عرف دائمًا

هناك من يهمس لك بالحقيقة، كأنها سكين تُسلَّم لك في الظلام

قيل له، بصوت خفيض كأنهم يعلنون موت الضوء:

"استشهدت... قُصفت وهي تُغادر الحيّ مع أمها."

لم يذكروا اسمها.

عرف من مات فيه، كما يعرف المرء فجأةً أين يوجعه قلبه.

كانت هي... الحب الذي لم يُقل

النبض الذي كان يؤجل الاعتراف به إلى حين...

لكنه خسر الحين.

كان قد خبّأ حبها في صدره كل تلك السنوات

كمن يخبئ شتلة في عتمة زنزانة، يحميها بأنفاسه، بصمته، بألمه،

بصوت كرم، بصورة أمّه،

بشيء من الطفولة.

حين سمع الخبر... لم يسقط على الأرض،

سقط داخله شيء لا يمكن استعادته.

لم يبكِ. لم يصرخ. لم يُكسر كوبًا، لم يركض نحو شيء.

بل شعر بفراغٍ هائل كأن الحياة نفسها انسحبت منه.

تاركةً جسده يتحرك بدافع العادة.

قال لنفسه بصوت كأنّه ينفصل عن كيانه:

"إذا كانت قد رحلت... فما الذي بقي؟ من بقي؟ ولمن؟"

منذ ذلك اليوم، بدأ شيئًا يشبه الترميم

لا بالحب، بل بالحقد

كان يلملم ما تبقى منه، لا ليعيش، بل ليُقاوم

كان يرى وجهها في لهب القصف ويسمع ضحكتها في صراخ الأطفال،

ويشم عطرها في الغبار العالق بثيابه.

اقترب من مجموعات المقاومة المسلحة في ريف دمشق

لم يكن يملك خبرة، ولا سلاحًا، ولا حتى يقينًا...

لكنهم قبلوه، لأن عينيه قالت ما يكفي.

تدرّب بصمت كمن يصلي في الخفاء

حمل البندقية للمرة الأولى... لم يرتجف.

لا لأن قلبه أصبح قويا بل لأن ما فيه قد مات.

صار يرى في البندقية امتدادًا لنداء لم يُجب عليه ولعناقٍ لم يكتمل

ولرسالةٍ لم تُكتب أبدًا.

قال له أحد القادة ذات مساء وهم يتبادلون القهوة المرة:

"ما الذي جاء بك إلينا؟"

أجابه نزار دون تردد دون تفكير:

"الموت أخذ مَن أحب... وأنا جئت أتعلم كيف أقول له: أنا هنا."

لم يكن بطلًا ولا ادّعى ذلك

كان جنديًا في جيش الندم، في حربٍ لا تشبه الحكايات

ولا تنتصر فيها العدالة... بل تستمر فقط،

لأن الصمت صار خيانة

لأن الحزن إذا لم يتحوّل إلى سلاح يقتل صاحبه.

في إحدى الليالي وهو يحرس على التلّة

كان البرد ينهش أصابعه والصمت يثقل صدره.

استعاد بيتًا قديمًا قرأه ذات يوم في زنزانة

خطّه كرم على الجدار بالفحم:

"الحب في الأرض شيءٌ يشبه الموسيقى... لكن من يسمع؟"

أغمض عينيه كأنّه يحاول أن يسمع ثم ابتسم بمرارة

قال في داخله:

"الذين ماتوا فقط... هم الذين ما زالوا يسمعون."

أعاد إصبعًا على الزناد رفع رأسه نحو العتمة

بدا كمن قرر أن يبدأ حياة جديدة، لا ينجو فيها، بل يترك أثرًا.

لم يكن الموت يخيفه كما في السابق.

بل صار يشبه صديقًا قديمًا يمرُّ بجانبه كل ليلة ولا يتوقف.

كان يتذكر الزنزانة في كل لحظة خطر

كأن السقف ما زال يتنفس فوقه، يراقبه، يشهق معه.

وجه كرم لا يفارقه، لا كشبح... بل كوصية.

وصية تقول له: "لا تنسَ... لا تصمت... لا تخن."

حين يغمض عينيه كان يرى وجهها كما كان آخر مرة تبتسم رغم الخوف...

كأنها كانت تودعه دون أن تعلم.

حافة الضوء... بندقية وشبح

الليلة ثقيلة، كأنها لا تريد أن تنتهي

سماء ملبدة، لا بالنجوم، بل بنذرٍ قاتمة،

تتكاثف فوق الرؤوس كأنها تحمل وعدًا لا يُقال.

في خندق ضحل، محفور بيدين مرتجفتين،

كان يتمدد بصمت التراب تحت جسده بارد، كأن الأرض لم تعد تحتضن أحدًا بل تبتلعهم.

الظلال تتحرك حوله ببطء كأن الليل نفسه صار كائنًا خائفًا.

الأصوات تتداخل في أذنه كتراتيل جنائزية

صوت القصف في الأفق،

أنين أحد الجرحى يختنق في صدره،

دعاء خافت يخرج من بين شفتي مقاتلٍ لا يعرف إن كان سيكمل هذه الليلة حيًا.

الوقت ثقيل يتثاقل في صدره كحجر،

كل دقيقة تمرّ كأنها سنة كاملة من حياة لم يعشها بعد.

اقترب منه شاب في أوائل العشرينات،

عيناه الواسعتان ما زالتا تجهلان شكل الموت الكامل،

رغم أنه يزحف نحوهما كل ليلة

بندقيته تتدلّى على كتفه، أثقل من جسده.

جلس بالقرب منه، وسأله بصوت خافت،

كأنه لا يريد إزعاج هذا السكون المشحون بالرهبة:

"شو اسمك؟"

أجاب دون أن يلتفت: "نزار."

ضحك الشاب بخفة:

"نزار قباني؟"

ابتسم نزار رغم التعب:

"لا... نزار اللي ما عاد فيه شي من الشعر، إلا الحزن."

ابتسم الشاب، وقال:

"أنا علاء... من داريا. تركت أمي هناك، وحياتي كلّها ورى ظهري.

كنت عم فكر... لو استشهدت، مين راح يدفني؟"

نظر إليه نزار، لم يجد جوابًا جاهزًا.

السؤال لم يكن بريئًا، بل كان اعترافًا مرًا من شابٍ يعرف ان يومه و ليله مؤقت .

قال أخيرًا:

"نحن ما مننَدفن بس وقت نموت... مننَدفن لما يُنسى اسمنا، لما يضيع وجهنا، لما تصير صورتنا مجرد رقم."

أومأ علاء برأسه بصمت ثم قال:

"بس إذا الله كتبلي استشهد ... بدي موت واقف، بكرامتي."

اتى أمر التحرك

دورية استطلاعية نحو أطراف البلدة

حملوا أسلحتهم، تسللوا بين بيوتٍ كانت عامرة بالضحكات...

والآن لا تسكنها إلا الأشباح والذكريات والفراغ.

دخلوا مبنى نصف منهار، الجدران مشققة،

السقف مفتوح على ليلٍ بلا نجوم.

في الطابق الثاني وقعت عين نزار على صورة،

عروسٌ وعريس مبتسمان، الزمن كان قد تكلّس فوق الإطار،

لكن الابتسامة بقيت كما هي... حنونة، دافئة، مؤلمة.

نظر نزار إلى العروس... في عينيها شيءٌ منها همس:

"كأنكِ هنا... أو أني لم أعد أرى سواكِ."

رفع يده نحو الصورة، لم يلمسها كان يخشى أن تنهار.

دوّى انفجار مفاجئ ارتجّ المبنى، تحطمت النافذة،

سقط علاء على الأرض.

صرخ نزار: "علاء!"

اقترب منه، الدم يملأ وجهه، والعينان تنطفئان ببطء

وضع رأسه في حجره، مسح جبينه المرتجف.

ابتسم علاء، رغم الدم، رغم الموت الذي كان

يفتح فمه ببطء قال بصوت مختنق:

"قل لأمي... إني كنت عم حاول أرجع."

غابت الابتسامة، وسكن الجسد.

بقي نزار وحده، في الطابق المهدّم، مع جثة صديقه، وصورة العروسين،

وشبح من أحب.

الليل صار أكثر برودة، وأكثر ضجيجًا...

همس لنفسه رغم الصمت:

"أنا لا أقاتل لأنتصر...أنا أقاتل لأبقى إنسانًا أقاتل كي لا يصير وجهي مجرد ظلّ في ذاكرة أحد وكي لا تُمحى هي، من داخلي."

عند الفجر، خرج من المبنى

السماء بلون الرصاص

الهواء مثقل بالدخان

عاد إلى نقطة التجمع،

كل خطوة كأنها تجر ماضيه بأكمله

سأله أحد القادة: "شو صار؟"

أجابه نزار:

"واحد مات، وواحد ظلّ حي... بس الاثنين فقدوا كل شي."

ثم مضى بصمت،

كأن كل الكلمات لم تعد قادرة على تغطية كل هذ الدم .

العائدون من الرماد

لم يكن نزار يعرف لماذا بقي بعد كل من رحل...

بعد كل ما احترق... بعد كل ما انكسر فيه،

لم يكن هناك سبب ظاهر لبقائه

كان بإمكانه أن يموت ببساطة، كما يموت الآخرون دون أن يكتب وصية،

أو يطلب شاهدًا، أو حتى يخبر أحدًا أنه تعب

لكنه بقي.

ربما لأن الموت، رغم بساطته، لم يكن عادلًا بما يكفي

او ربما لأنه كان يشعر أن وجعه لم يكتمل بعد،

أن ثمة فصلًا ناقصًا، صوتًا مخنوقًا، دمعة لم تجد طريقها بعد.

كانوا قد انتقلوا إلى أطراف الغوطة الشرقية

القتال هدأ،

لا لأن الحرب انتهت، بل لأنها بدّلت وجهها.

في الهدوء، وجد نزار عدوًا من نوع آخر:

صوته الذي ظلّ صامتًا طوال سنوات الزنزانة والجبهات،

عاد الآن ليُكاشفه، ليعرّيه.

صار يسمع أفكاره كأنها طَرقُ مسمار على جدارٍ فارغ

كان أصعب من كل طلقات الرصاص.

في ذلك المكان الرمادي وجدها

كانت تُدعى "هالة"، تعمل في الإسعاف الميداني.

شعر، منذ اللحظة الأولى، أن في عينيها شيئًا لا يشبه هذا العالم

كأنهما ضوءٌ متعب، رأى كثيرًا...

ثم قرر أن لا يقول كل ما رأى.

لم يكن نزار يبحث عن حب

لم تكن هالة تبحث عن شيء

لكن بينهما، نشأ حديثٌ بلا عنوان، بلا بداية واضحة،

حديثٌ يتسلل بين الأوقات، دون استئذان، ودون وعود.

قالت له مرة، وهما يجلسان على الرصيف قرب نقطة طبية مهجورة:

"أحيانًا، بشعر إنو نحنا ناجين من حريق... بس...

ما مننتبه إنو الرماد بعده بصدورنا."

نظر إليها طويلاً ثم قال بصوتٍ يشبه نَفَسًا لا يريد أن ينقطع:

"أنا بخاف إني ما نجوت... يمكن بس ما مُت بعد."

ابتسمت بخفة.. نظرت إليه نظرة طويلة،

كما لو كانت تقرأ شيئًا في ملامحه لا يُرى.

"بس أحيانًا... هاد كافي إنك تبقى حي، مو لتعيش بس لتكتب شهادة، عن اللي ما قدروا يضلّوا."

مرّت الأيام ببطء ناعم، لا يشبه ضجيج الجبهات

صار نزار يُساعد في نقل الجرحى

ينظف الأرضيات في آخر الليل

يحرص على ترتيب الأدوية في المخزن

يقف حارسًا قرب الباب المهجور

كأن ذلك يهبُه نوعًا جديدًا من القيمة... لا تُرى، لكن تُحَسّ.

لم يحمل سلاحًا في تلك الأيام لم يصرخ في وجه أحد.

لكنه شعر للمرة الأولى أنه يعود لا كشاعر ولا كمقاتل،

بل كظلٍّ يمشي خلف إنسانيته يحاول اللحاق بها قبل أن تضيع منه نهائيًا.

استيقظ ذات صباح كان الضوء يتسلل من نافذة مكسورة

أشعّة الشمس تتناثر على وجهه كأنها تتلمّس ملامحه بعد غياب دفءٌ بسيط، لكنه غريب... كأنه نُزِعَ من عالم آخر

نظر إلى السماء الرمادية وتمتم:

"يعني معقول تكون الحياة خجولة لها لدرجة؟

تبعتلنا شعاع واحد... بس تسرقه قبل ما نمد إدينا؟"

جلس بصمت، شعر أن صدره لا يحتمل الكلام

امتدت يده نحو دفتر صغير يحتفظ به.

فتحه صفحة بيضاء، كأنها تنتظر نبضًا

كتب بقلم باهت:

"ما بعرف إذا عم أكتب لأرجع أو بس لأثبت إني ما رحلت كلّي."

أغلق الدفتر، ونظر حوله.

كانت "هالة" هناك دومًا، صامتة في حركتها،

مشغولة بضمادات وأدوية وكلمات قليلة تشبه الطمأنينة.

ذات مساء بعد يومٍ طويل من الإسعاف والقصف ،

دخل الغرفة الصغيرة وجدها نائمة على كرسي معدني في الزاوية

رأسها كان مائلًا إلى جانبها، كزهرةٍ أرهقها المطر

يدها تمسك بطرف شال رمادي بدا كأنّه دثارٌ من ذاكرة بعيدة

رموشها ألقت ظلًا خفيفًا على وجنتيها،

أنفاسها المنتظمة بدت كنغمةٍ يعرفها من قبل... لا تُسمع، لكن تُشعر.

كان التعب مرسومًا في ملامحها،

بدت في تلك اللحظة أجمل من كل الصور التي نجا بها من الحرب.

في زوايا وجهها ندوب خفية، لم تكن تشوهًا،

بل علامات من عبروا النار ولم يذوبوا.

نظر إليها طويلًا، ثم قال في نفسه:

"تنام كما ينام من قاتل طويلاً، لا ليستسلم، بل ليمنح نفسه هدنة،

هدنة بين جرحين."

اقترب بخفة غطّى كتفها ببطانية خفيفة، جلس قرب الباب مراقبًا الضوء المتسرّب من النافذة المكسورة...كأنه يحرس شيئًا نادرًا لا يُمس.

انكسار لا يُروى

لم تأته الضربة فجأة، بل كما تفعل الحياة حين تقسو...

تهيّئك بالحزن، ثم تهدمك بالفقد.

لم يكن نزار ينتظر شيئًا، لكنه لم يكن مستعدًا أيضًا لهذا

كان يظن أو يتظاهر بالظن أن من نجا حتى الآن لا يُؤخذ منه المزيد

لكنه نسي أن الحرب لا تعترف بالإنصاف، وأن الخسارة أحيانًا لا تتكرر...

بل تتضاعف.

كانت الغارة أعنف من كل ما سبق

السماء مشتعلة والطائرات لا تبحث عن هدف...

بل عن أثر، عن صوت حياة يجب أن يُطمس

الصفير سبق الانفجار، ثم أتى اللهيب.

كل من كان في النقطة الطبية هرع نحو القبو.

كان آخر من نزل،

يتأكد كما اعتاد أن لا أحد بقي في الأعلى.

ألقى نظرة أخيرة على الغرف، على الممر الذي يحمل آثار أقدام الجرحى،

ركض نحو السلالم.

دخل القبو، لم يكن فيه أمان... بل وجوه مذعورة،

قلوب ترتجف في صمتٍ يوشك أن ينهار.

أحدهم شاحب الوجه قال بصوت مخنوق كأن الكلام أثقل من أن يُقال:

"ضربوا النقطة... اللي فيها هالة. ما حدا رد من هناك."

لم يتحرك في البداية كأن جسده يرفض التصديق.

كأن قلبه يؤجّل الجواب كي لا يموت لكن عقله،

ذاك الذي يعرف أن القصف لا يمزح،

دفعه بعد لحظة

ركض شقّ طريقه بين الركام، عبر الأزقة التي كانت مأوى وتحولت إلى فخاخ.

كان الليل مظلمًا و قاسيا ... باردا

النار في الأفق كانت تكفي لترى الألم

وصل إلى النقطة كان الدخان لا يزال يصعد منها والنار تلتهم الحواف.

صرخ باسمها.

لم يُجبه أحد بدأ يفتش بأنامله، بأظافره، بصوته المرتجف

كل قطعة حجر كانت احتمالاً،

كل همسة ريح كانت أملًا كاذبًا

حتى وجدها.

كانت دافئة... لكنها لا تتحرك عينها مغمضة،

ملامحها هادئة كمن نام على وعدٍ مؤجل

جلس قربها لم يصرخ لم ينهار.

وضع كفه على وجهها ومسح شيئًا من الغبار عن وجنتيها.

ثم همس... كأنما يكلم من ماتت قبلاً:

"لماذا دومًا تموتين قبلي؟ كأنك تختارين الموت عني... كل مرة."

مرّت الساعات بطيئة

بقي الليل كله جالسًا قربها

كان الدخان يعبث بثيابه، بعينيه، لكنه لم يغمض جفنه

كان ينظر إليها وكأنه يحاول أن يحفظ ملامحها في ذاكرة مُنهكة،

أو يرجو أن تستيقظ فجأة وتقول له: "أنا بخير."

في الصباح، دفنها بيديه حفَر التراب كما لو أنه يحفر في صدره

غطّاها بلطف، ووقف قليلًا قبل أن يهمس:

"كنتِ آخر من تبقّى لي... والآن، لا أحد."

عاد إلى المخبأ دون كلمة

جلس في الزاوية، سحب دفتره المهترئ و كتب:

"لا أعرف من أكون بعد الآن

كنتُ سجينًا، ثم عاشقًا ميتًا، ثم مقاتلًا بلا ثأر، ثم ظلًّا يعيش بين الأنقاض.

والآن؟ أنا... لا أحد."

تلك الليلة، لم ينم خرج بصمت، مشى نحو التلّة جلس هناك، وحده،

الفجر يتسلل بين غيوم ثقيلة.

عاد وحده. لا ظلّ يتبعه، ولا أثر يُدلّ عليه

وجهه مغطّى بغبار الدفن

عيناه لا تريان سوى صورتها ... كما رآها هناك، ساكنة،

كأنها قررت أن تنام للأبد.

في طريق عودته، بدا له كل شيء رماديًا:

الأشجار، الوجوه، حتى السماء.

جلس عند الجدار الخلفي للمخبأ، ووضع رأسه على ركبتيه كطفلٍ نسي اسمه،

كأن دفنها سحب منه آخر خيط بينه وبين الحياة.

لم يقل شيئًا. لم يكتب. لم يبكِ

كان الصمتُ هذه المرة أبلغ من أي وجع

كأن الكلمات نفسها... قد استشهدت معه.

لم يكن نزار مقاتلًا، ولا حبيبًا، ولا ناجيًا من السجن أو الحرب،

كان مجرد إنسانٍ خسر أكثر مما تحمله الروح كأن كل ما تبقّى منه...

صار رمادًا لا يُبعثر، بل يثقل القلب، ولا يُروى.

أغمض عينيه، كأنّه يحاول أن يرى بداخل روحه ما لم يعد موجودًا حوله

كأنّه يفتّش عن ظلّها في صمته،

عن أثرها في البرد الذي صار يملأ صدره،

لكن شيئًا آخر كان يتملّكه...

رغبة حارقة لا تشبه الحزن، بل تُشبه الحقد،

كأنّ موتها أشعل فيه نارًا من نوع جديد نارا لا يمكن ان تنطفئ.

الحفرة

لم يعُد يشعر بشيءٍ يشبه الزمن.

الليل والنهار انزلقا من قلبه،

كما تنزلق الذكريات من يد عجوزٍ مرتجفة.

كلّ ما بداخله ضبابٌ كثيف، رمادٌ يغطّي ملامح الذاكرة،

ويُغشي صوت الشعور.

في زاوية المخبأ، قرب الحائط المتآكل،

جلس كما تجلس الخسارة حين تتكئ على نفسها.

لا يخرج مع المقاتلين، لا يرد على أحد، لا يجلس إلى الطعام.

كل يومٍ يغرق أكثر في صمته،

في خطوطٍ يرسمها على الأرض بأصابعه ثم يمحوها...

خطوطٌ لا تُفضي إلى شيء،

كما لو كان يرسم قبورًا يدفن بها ما تبقى من ذاكرته.

لياليه صارت طقوسَ وداعٍ متكررة.

كأنه يعيد دفن من رحلوا، لا ليودّعهم، بل ليتأكد أنهم لن يعودوا...

فيخذلوه مجددًا.

في تلك الزاوية، حيث لا أحد يسأل ولا أحد يجيب... يتنفس الرماد.

اقترب منه شابٌ ذات مساء، همس كأنّه يمشي في جنازة:

"بدك شي؟"

لم يرفع عينيه، لكن صوته خرج من مكانٍ بعيد، هشًّا:

"بدي شي... يخلّيني أصدق إني لسه عايش."

صمت الشاب، ظنّه يهذي، أو يحلم بعالمٍ آخر.

لم يجب.

لكنّ عينيه قالتا كل شيء...

كان فيهما احتراقٌ لا تشفع له صحوة، وغرقٌ لا ترفعه يقظة.

في كل ليلة، كانت الغصّة تتسلل إلى صدره،

تكبر، تختمر كحقدٍ لا وجه له.

لم يكن يريد أن ينتقم، كان يخاف أن يُنسى...

أن تمرّ هذه الحرب كما لو لم تمرّ عليه بجنازتها الكاملة.

ذات ليلة، اختفى.

قلق في العيون، همسٌ في الزوايا،

بحثوا عنه في الخنادق، في النقطة الطبية، بين الركام.

وجدوه عند الفجر، جالسًا داخل حفرةٍ صغيرة،

حفرها بيديه كما يُحفر القبر.

لا نائمًا، لا مستيقظًا... بل عالقًا بين حالتين لا اسم لهما.

"شو عم تعمل هون؟" سأله أحدهم بدهشة.

أجاب بصوت كأنّه يخرج من صدرٍ مكسور:

"عم جرّب إذا للموت ملمس... فوق الأرض."

ضحك الشاب، ظنّها نكتة، في عينيه لم تكن ضحكة.

بل فراغ، وجفاف، وبردٌ لا يدفئه حتى الجمر.

عاد تلك الليلة إلى الزاوية، أمسك حجرًا وكتب على الحائط:

"أنا لا أشتهي النهاية، ولا أحتمل البداية... أنا فقط انتظركل يوم بصمت."

أسند رأسه، أغمض عينيه، لم يحلم بشيء.

لا وجهها، لا البيت، لا صوته حين يناديها...

حتى اسمه صار غريبًا عليه. خانته الذاكرة، خذلته الذكريات.

ربما لو كان الموت أكثر عدلاً... لأخذه معها.ىلكنه لم يفعل.

تركه يتآكل كلّ يوم، كشاهدٍ على الخراب.

في إحدى الليالي، ظهر صوته القديم...

ذاك الصوت الذي كان يهمس به لها قرب سور القلعة.

كان يقرأ عليها:

"وأحبكِ حين تهمّين بالرحيل..."

لكنّ الصوت عاد هذه المرة مشروخًا، كأنّه جاء من داخل قبر.

قال له الصوت:

"أأحببتها... أم أحببت وجعك معها؟"

همس في العتمة:

"احببتها و أحببت وجعي بدونها."

من تلك الليلة، عاد يكتب، لا شعرًا، بل نحيبًا:

"أنا ظلّ عاشقٍ لم يمت... ولا عاش." "أنا رجلٌ يحارب في ذاكرته."

"أنا جسدٌ يقاتل الهواء."

الحريق

المخبأ، ذلك الركن المظلم المنسي،

كان يحدّق في جدارٍ قد كُتب عليه ذات مرة بأحرف باهتة:

"أنا... لا أحد."

شيئًا ما كان يتغيّر في داخله.

الفراغ الذي اعتاد أن يكون ساكنًا،

صار اليوم أكثر ضجيجًا،

كأن صوتًا داخليًا كان همسًا بعيدًا،

بدأ يتحول إلى صراخ مكتوم لا يُحتمل.

صوت الألم، الصمت المكسور الذي يصرخ في قلبه بلا توقف.

تتابعت صور وأسماء

أحبّهم وفقدهم،

عادت تهتز في رأسه كأمواج عاتية:

وجه والدته الحنونة التي لم يعد يسمع صوتها إلا في أحلامه،

صوت كرم الذي لم يزل يتردد في أذنيه،

ضحكة هالة وابتسامتها المائلة التي كانت تواسِيه عندما يشتد به الحال،

صوتها الناعم يقول له:

"نام شوي، بكرا منحكي."

تلك اللحظة، لم يعد النوم ملاذًا،

صار هروبًا من حقيقة ثقيلة تزداد وطأتها على صدره.

بدأ يرتجف من فرط الألم، وكأن جسده كله يستعد للانفجار،

كأن روحه تضغط من الداخل

كأن كل ما كتمه لسنوات طويلة قرر أن يخرج دفعة واحدة،

غاضبًا وعنيفًا.

نهض من مكانه بسرعة، ركل الجدار بقوة غاضبة

كأنه يريد أن يحطم الصمت والظلام اللذان كانا يحيطان به.

صرخ بأعلى صوته، صدى صرخته تمزق السكون:

"ليش؟! ليش أنا؟ ليش كل شي بيروح؟!"

لم يقف عند هذا الحد، أمسك بكرسي مكسور كان قريبًا منه،

حطمه بعنف كما لو كان يحطم كل ما يؤلمه دفعة واحدة،

قلب الطاولة بقوة، رمى دفاتره في النار،

حتى الدفتر الذي كان يكتب فيه لها،

تحولت الدفاتر إلى رماد مع كل ذكرياتٍ تألم بها.

دخل عليه شاب مذعور : "شو صار؟!"

صرخ في وجهه:

"ما بقا فيني أسكت! كلكن تركتوني... وأنا عم موت لحالي!"

تجمّع حوله بعض المقاتلين الذين عرفوه،

كان نزار في المنتصف، ملامحه محترقة من الداخل،

صوته متعب لكنه يحمل حدة لا تخطئها الأذن:

"تظنّون أنني جننت؟

نعم، جننت... لكن من لم يُجنّ هنا... هو الميت الحقيقي."

اقترب من أحدهم، حدّق في عينيه بنظرة تخترق الروح وقال:

"كم صديق دفنت؟ كم أم نسيت صوتها؟

كم بيت احترق في رأسك وأنت تضحك معهم؟

أتعرفون ما الذي يُخيفني؟

أننا اعتدنا الموت... وأصبح العيش هو الغريب."

سكت الجميع أثقلتهم كلماته

عم صمتٌ ثقيل المكان صمت لم يبقَ له ما يقوله.

كان نزار أكثر عزماً وأرادة

تحول من الكسر الى القوة والإرادة

طلب قائمة بالمواقع الضعيفة، أعاد رسم خطط الحراسة،

درّب بعض المقاتلين، بدأ يقود المداهمات الصغيرة بخطى ثابتة.

كان يعرف كيف يختبئ، وكيف يهاجم، وكيف ينسحب،

كان يعلم جيدًا لماذا يفعل ذلك:

ليس للثأر، ولا حتى للنجاة،

بل لأن من بقي حيًا بعد كل ذلك... يجب أن يفعل شيئًا، أي شيء حتى لو كان الألم رفيقه الدائم.

مرّت الأيام

بعد أسبوعين فقط قال أحد المقاتلين للشاب الجديد:

"شايف هداك؟ هاد كان نزار... اللي كنا نقول عنه مات وهو عايش."

رد الآخر متسائلاً: "وبعدين؟"

قال الأول وهو يربّت على سلاحه بحزم:

"بعدين صار هو القائد. مو لأنه أراد... بس لأن الجحيم ما ترك له خيار تاني."

جلس قرب النار في إحدى الليالي الباردة بيده نصف سيجارة لم يشعلها،

الدخان يتصاعد ببطء نحو السماء السوداء،

يراقب اللهب يتراقص كما تتراقص ذكرياته المشتعلة.

ألقى كلمات همس بها لنفسه فقط

ابتسم ابتسامة باهتة، تلاها بصوت حزين:

"نزار قباني؟ لو كان هنا... لكتبني قصيدة عن الحريق الذي أصبح رجلاً."

كان يعلم أن هذه المعركة ليست فقط خارجه،

بل داخل روحه الممزقة التي تكافح من أجل البقاء.

همس لنفسه في صمت الليل العميق:

"ربما لا أجد السلام، لكنّي سأظل هنا،

أقاتل لأجل شيء ما... لأجل أن لا يكون الألم بلا معنى."

بوجهين في المعركة

كانوا أربعة عشر رجلًا يعبرون الممرّ الليلي بين تلتين موحشتين،

لا ضوء في السماء، ولا أمان في الأرض.

الهواء كثيفٌ كأنّه يحمل في ذراته رعبًا خامدًا،

الظلال الممددة حولهم لم تكن مجرد أشجار أو حجارة...

بل احتمال موتٍ يتربّص.

كل خطوة كانت قرارًا بين الحياة والموت.

نزار في المقدّمة، يسير دون صوت، كما اعتاد حين كان يتسلّل داخل ذاته في زنازين الفرع.

لم يكن يمشي فحسب، بل يجرّ خلفه قافلة من الأشباح...

وجوه من ماتوا، من اختفوا، من بقوا فيه كندوب لا تلتئم.

رفع يده. توقّف الجميع.

همس بصوتٍ أقرب للريح منه للبشر:

"في حركة قدّام... نص دقيقة، ومنبلّش."

هذا ما سمعه رجاله. أما هو، فكان يسمع شيئًا آخر...

كرم، صوته يهمس له من ذاكرة بعيدة:

"لو كنت معك هلأ، كنت ضحكت عليك من كتر خوفك."

الاشتباك بدأ دون مقدمات انفجارٌ خاطف، ثلاث رشقات قصيرة،

قنبلة صوتية مزّقت صمت الجبل.

نزار دخل أولًا.

كسر الباب الحديدي بكتفه، أطلق النار نحو الظلّ، ثم صرخ:

"يسار! يسار!"

رمى قنبلة دخانية،

التفّ نحو الممر الجانبي حيث لمح المقاتل المعادي يرفع سلاحه نحوه.

في اللحظة ذاتها... رأى وجه كرم، مدمّى، يُسحب من الزنزانة،

يصرخ بعينين غارقتين بالألم:

"لا تخليهن يكسروك!"

أطلق نزار النار، ارتجفت يده للحظة.

خرجوا بعد ثلاث دقائق.

أحدهم مصاب في الكتف، آخر مرعوب الوجه،

نزار... صامت كجدار.

قال : "عملية نظيفة... ما خسرنا حدا."

أومأ نزار برأسه، لكن عينيه كانتا معلّقتين في مكان لا يراه أحد.

ربّت على كتف الشاب المصاب، وقال بهدوء:

"كتفك مو أغلى من اللي مات... بسّهلها الله علينا، خلينا نكمّل."

ليلا ... جلس وحده أمام مدخل المغارة.

الريح تنفخ التراب في عينيه لا يرمش.

أخرج دفتره وكتب:

"أنا... قاتلت لأُنسى، لكن كل طلقة أطلقت، أعادتني إليّ."

في المعركة التالية، صار نزار أكثر حذرًا... لكنه اقسى ، حادّ كالسكاكين.

لم يعد يحتمل التردد.

يصرخ بالأوامر، يخطط بدقة، لا يلتفت خلفه.

قال له أحد رفاقه بعد المعركة:

"نزار... تغيّرت."

أجابه صوته كصدى داخلي:

"لا... أنا بسّ خلعت الكسر اللي كان يخليني أضعف."

كتب على الجدار داخل المغارة، بحجرٍ صغير:

"القيادة لعنة، لأنك تُضطر أن تكون الوجه الذي يُطمئن الجميع،

وتخشى أن تنظر في المرآة."

"غدًا... معركة أكبر."

لا أحد ينتظرني سواها، ولا أحد فيها سواها

كانت الليلة باردة، باردة جدًا،

ليست كبرودة المدينة الخانقة التي تظل على سطح الجلد،

بل برد الجبال الذي يغوص عميقًا في العظم،

يدخل إلى داخل نفسك وكأنه يبحث عن شيء دفين،

نُسي هناك وسط الركام والذكريات المنسية.

البرد لا يكتفي بأن يلمسك، بل يفتّش فيك،

يستخرج من داخلك ما كنت تخفيه عن العالم،

ربما عن نفسك.... عن روحك و عن من أحببت

جلس عند أطراف النيران التي كانت تتراقص بخجل،

تحاول أن تمنح دفءًا لا يكتمل.

كانوا نائمين أو على الأقل يدّعون النوم،

أجسادهم كانت مستسلمة للنوم، لكن وجوههم حذرة،

منتبهة لكل صوت.

أما نزار، فوجهه كان مغمورًا بلون آخر، لون لم تخلقه نار المخيم،

لون ذكرى لا تعرف أن تنطفئ، شيء شاحب وثقيل،

يشبه غيوم الشتاء التي تعلن عن عاصفة قادمة.

تحت تلك السكينة المكسورة،

نارٌ أخرى تحترق في داخله، نار من الغضب الذي لم يجد له منفذًا.

غضب من القدر، من الحرب،

من ذلك العالم الذي سلبه أغلى ما يملك،

وجعل قلبه يخوض معركة أشد قسوة من المعارك الميدانية.

قال له أحدهم بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمع نفسه

"نزار... شفت اسمها بلائحة الشهداء."

لم يرد نزار، تذكر.... شعر بأن الدم يغلي في عروقه،

بغضب قاتم وحزن عميق،

لم يكن في إمكانه قول شيء. أغلق عينيه،

احتضن ذلك الغضب بداخله، كأنه يشعل جمرة لا تنطفئ.

خرج من بين طيات الصمت إلى داخل المغارة الصغيرة التي اعتاد اللجوء إليها، هناك حيث الهدوء مطلق،

كان يشعر بأن غضبه يزداد قوة مع كل لحظة تمر.

أخرج من جيبه ورقة قديمة، طيّة من الماضي،

كُتبت بخط متوتر وغير متزن،

تحكي عن حب بسيط لكنه عميق:

"أحبك كما يحب الحجر ظلّه حين تشرق عليه الشمس بعد ليلٍ طويل."

في قلبه، كان يرى تلك الكلمات كما لو أنها سكين مغروسة في روحه،

تذكره بما فقد،

توقظ فيه رغبة الانتقام من كل ما جرى.

جلس نزار يكتب ردًا متأخرًا، ليس ليرسله، بل ليُفجّر ما في صدره:

"هالة... لا أعرف إن كنتِ تقرئين من حيث أنتِ الآن،

أكتب لكِ كأنك تجلسين هنا، تقولين لي: خفّف عن نفسك،

فقد أتعبتني."

كل شيء في داخلي يشتاقك،

حتى هذه الندوب التي رسمتها الحياة على وجهي،

حتى صوتي الذي صار قاسيًا يتلوى تحت وطأة الفقد والغضب.

هالة...

لم تموتي كما تموت الأجساد، بل كما تموت المدن؛

لا تموت فعليًا،

تبقى معلقة في الذاكرة، لا تُعاش ولا تُنسى،

كأنك ظلّ بعيد لا يمكن الوصول إليه.

عاد إلى بعض الصور التي احتفظ بها في دفتر صغير،

كان يفتحها بحذر شديد.

صورة لها وهي تضحك قرب نافورة في ساحة المرجة،

ضحكتها تملأ الفضاء بحياة.

صورة أخرى وهي تنظر بنظرة بريئة لأول مرة يراها فيها،

كم كانت جميلة في بساطتها... و

أجمل صورة كانت له خلسة، ملتقطة لها وهي تغوص في صفحات كتاب،

دون أن تدري.

نظر إلى الصورة،

ارتفعت في صدره موجة من الغضب المختلط بالحزن:

"كيف أقاتل لأجل وطنٍ لا تسكنينه؟ وكيف أنجو من حربٍ فقدتِ أنتِ فيها؟"

كان هذا السؤال يتردد كصرخة مكتومة في داخله،

صرخة الغضب التي تعلو مع كل ذكرى تتسلل إليه،

صرخة الثورة التي لم تتحقق،

حلم السلام الذي كسر.

دخل صديقه علي عليه، وقف عند مدخل المغارة،

لم يقل شيئًا لكنه قرأ ما كان يكتب نزار.

سأل بصوت هادئ،:

"كانت حبيبتك؟" أجاب نزار بلا أن يرفع نظره،

بصوت ممزوج بالمرارة:

"كانت ما تبقّى منّي."

جلس الصديقان في صمت طويل، حيث الكلمات لم تكن كافية.

قال علي بهدوء:

"أحيانًا يا نزار... من يموت ينجو، أما نحن... فنموت كل يوم."

كانت كلمات علي كالسيف يقطع بين ضلوع نزار،

يغوص في أعماق حزنه وغضبه معًا.

عاد وكتب نزار في آخر سطر من رسالته:

"أحببتك... ولم أحترف النسيان كما لم أحترف النجاة."

أغمض عينيه، سمح للدمع أن ينهمر مرة واحدة فقط،

دمعة واحدة على كل ما فقده وعلى كل ما لم يُقال

دمعة تذيب الجليد الذي كوّنته الحرب في قلبه،

رفع رأسه ليواجه مجددًا الحرب التي تنتظره بالخارج،

تلك المعركة التي لم تكن فقط على الأرض،

بل داخل نفسه، في ذاكرته وقلبه الممزق.

رغم كل الغضب، كان في عينيه لهفة لا تختفي،

لمحة من عزم صلب على ألا يسقط رغم كل شيء،

أن يحيا ويقاوم،

لأن الألم وحده لا يمكن أن يكون نهاية القصة.

مدينة كأنها تنتظر الهلاك بعد النجاة

الساعة الخامسة فجرًا وقف نزار على التلة المطلة على حلب

الريح باردة،

السماء بلونٍ رمادي خافت كأنها تعاني من صداعٍ مزمن

لم يكن في المدينة ضوء، لكنها لم تكن مظلمة

كأنّ فيها توهّجًا خافتًا يأتي من الأعماق

وهج الرماد، لا وهج النور

كأنّ البيوت نفسها تحترق من الداخل، بصمت دون نار، دون صوت،

تئنّ بلا أن تُسمع، كما يئنّ الجسد المعذَّب حين يغيب عنه الأمل.

من خلفه، همس أحد رفاقه، صوته يحمل مزيجًا من التعب والإنكار:

"خلص... المدينة رح ترجع إلنا."

لم يجب. كأنّ الكلمات ثقيلة، لا تصلح لهذا الصباح.

كل شيء في صدره كان يقول العكس:

المدينة لا تعود لأحد... المدينة تبتلع من يظنّ أنه امتلكها.

كان يشعر بشيء لا يمكن شرحه كأن المدينة نفسها لا تريد أن تُفتح،

كأنها امرأةٌ اغتُصبت ألف مرة

تغلق أبوابها من الداخل بصمتٍ جليل، يشبه الكبرياء الجريح.

دخلوا من جهة السكّري ثم مرّوا على الكلاّسة.

البيوت هناك ليست بيوتًا...

نصفها مهدّم،

النصف الآخر بلا نوافذ، بلا أبواب،

جدرانٌ معلّقة على الحنين

شوارع لا تمشي فيها إلا الذكريات

الناس يخرجون من الزوايا ببطء، كأنهم لا يصدقون أن النهار عاد

وجوهٌ شاحبة، متسخة بالغبار

أجسادٌ مشقوقة بالأسى،

كأنهم ماتوا جميعًا، ثم تراجع الموت عنهم...

لا رحمة، بل خطأ.

امرأة مسنّة، شعرها أبيض كالدخان خرجت من تحت الأنقاض،

تترنّح كأنها خارجة من نومٍ عمره قرن.

نظرت إلى المقاتلين،

قالت بصوتٍ كأنّه خرج من قاعٍ سحيق:

"رجعتو... منين؟ ما بعرف... بس رجعتو و الحمد لله على السلامة ."

لم يكن في كلامها رجاء، ولا اتهام

دهشةٌ ثقيلة فقط

تحفر في الهواء مثل جرحٍ مفتوح.

كان صوت الرصاص قد هدأ

لم يختفِ كان يسكن الجدران، يسكن الهواء،

كأن المدينة تنفست البارود طويلًا وصارت تطلقه زفيرًا في وجه العائدين.

الرائحة كانت الأوضح رائحة موتٍ طازجة

رائحة دمٍ لم يُدفن بعد،

رائحة مدينةٍ تنهار من الداخل،

تدفن شوارعها وهي على قيد الحياة.

في شارعِ الخان، رأى نزار طفلًا يبحث عن حذاء وسط كومة من الركام

كان الطفل يحفر بيديه العاريتين

كمن يبحث عن لعبةٍ ضاعت منه قبل الحرب.

اقترب منه، سأله بصوت خافت: "شو عم تعمل هون؟"

رفع الطفل رأسه، عيناه سوداوان

كأنّ الليل استقرّ فيهما

قال ببساطة مذهلة:

"بتعرف... فيني أركض أسرع من القذيفة إذا كنت حافي."

ضحك أحد المقاتلين خلف نزار، ضحكة قصيرة، لا تشبه الضحك

لكن نزار بقي صامتًا.

كان يحسّ بشيء يتآكل في صدره شيء بلا اسم،

بلا شكل، لكنه حاضرٌ كحقيقةٍ أزلية.

في اليوم الثالث من دخولهم اختفى فهد ترك سلاحه،

غادر المخيم ليلًا بحثوا عنه طويلًا، في الصباح،

وجدوه جالسًا عند مدخل الجامع الأموي جالسًا على الأرض،

عاريًا من السلاح، مغطّى بالتراب

يهمس بكلمات مبعثرة، كأنّه يُكلّم المدينة

اقترب منه نزار، جثا أمامه،

قال له برفق: "شو اللي صاير يا فهد؟"

رفع فهد رأسه، عيناه حمرَاوان، لكن بلا دموع،

قال بصوتٍ أقرب للغناء الحزين:

"المدينة ما بدها تتحرر، نزار...بدها نتركها تموت بشرف...بدها نوقف نكتب عليها أسماءنا ونقول "رجعت إلنا" ...

هي ما راحت منا، نحنا اللي تركناها، وتركنا أرواحنا فيها."

جلس نزار وحده قلبه يتثاقل كأنّه حجر مغموس بالحرب

فتح دفتره وكتب:

"دخلنا المدينة كفاتحين لكن الأرض ترتجّ تحت أقدامنا

كأنها لا تصدّق أننا نحن

نحن الذين عاهدنا الشهداء على ألا نُشبه الظالمين

لكن البنادق نفسها، والطرقات نفسها والساحات...

تنتظر رجلاً يشبه القاتل، لا الشهيد."

تلك الليلة،

جاءه الكابوس في ساحة حلب القديمة،

الناس يحيطون به من كل الجهات

وجوه بلا ملامح كأنهم مرايا مشقوقة، تعكس داخله لا ظاهرهم.

ظهرت "هالة"، لم تقترب، لم تلمسه

قالت بصوتٍ غريب، من مكانٍ أبعد من الحلم:

"هزمتَ العدو... لكن هل انتصرت على نفسك؟"

استيقظ فجرًا العرق يغمر صدره

صوتها ما زال يدوي في أعماقه كسؤالٍ لا مهرب منه.

وقف ببطء، ارتدى سترته قبل أن يفتح الباب، اقترب من الجدار ورسم بخط فحمي، قاتم، مرتجف:

"والآن... إلى أين؟"

حين غنّت المدينة بأصوات أهلها

دخل نزار المدينة ظهرًا

الشمس كانت تبدو أقرب والضوء أغزر مما اعتاد.

الريح كانت مشبعة بالغبار

في الهواء كان رجع أصوات أخرى

كأن البيوت نفسها تتنفس من جديد،

كأن النوافذ الخالية صارت تصفق ككفوف تُصفّق احتفالًا.

على أطراف حيّ المشهد رأى الأطفال يركضون

بعضهم حفاة بعضهم بقمصان ممزقة لكن بوجوه مضيئة،

كأنهم تذوقوا الحلوى للمرة الأولى.

امرأة خرجت من بيت مهدّم

حملت إبريقًا قديمًا

صبّت الماء في أكفّ المقاتلين

قالت وهي تبتسم بعينين دامعتين:

"هنيئًا لكم... رجعتوا لنا البلد."

نزار وسط الشارع، نظر إلى رفاقه،

وقال: "لأجل هدول الناس... كنا عم نقاتل."

رفع شباب الحي علم الثورة

علّقوه بين عمودين مكسورين

صاروا يهتفون لا بالسياسة بل بالفرح.

كانت الأغاني تخرج من المذياع لأول مرة منذ سنوات،

وصوت أم كلثوم يتردّد من بيتٍ لا نوافذ له

"حيرت قلبي معاك... وانا بداري وأخبي."

ضحك نزار وقال: "حتى الستّ رجعت تغني بحلب."

مساء ذلك اليوم أُقيمت صلاة جماعية

طهت النساء قدرًا كبيرًا من المجدّرة

أكل الناس على الأرض،

كما كانوا يفعلون في الأعراس القديمة

جاءت طفلة صغيرة إلى نزار أعطته وردة يابسة وقالت:

"بابا قال إذا اجوا الطيبين، نعطيهم ورد."

أخذها نزار كمن يأخذ وسامًا ثم جلس بعيدًا قليلًا وبكى.

بكى دون صوت

لكن قلبه كان يغني مع المدينة

كتب ليلًا في دفتَره:

"دخلناها بلا غبار والأرض غسلت أحذيتنا بدل أن توسخها.

رأى النور يخرج من عيون الأطفال وسمع الزغاريد تشقّ الجدران.

هل هذا نصر؟ لا أدري لكنه يشبه الحياة."

في الصباح أيقظ رجاله باكرًا وقال لهم:

"اليوم ما في معركة...

اليوم بدنا نعلّم الأطفال يرسموا علمنا على الجدران

ونزرع الورد على مدخل المدرسة."

ضحك فهد وقال:

"يعني قائدنا صار شاعر!"

رد نزار وهو يبتسم:

"لا، بس تعبت من القتل صار بدها شويّة حياة."

وضع الوردة على فوهة البندقية و اتكئ البندقية على الجدار المتعب

استيقظت حلب على نغمةٍ غريبة

لا صوت رصاص ولا أزيز طائرات

طنين بعيد، كأن الأرض تهمس لنفسها:

"نجوتِ."

خرج الناس من بيوتهم كما تخرج الأرواح من الظلال،

بحذر، ولكن بفرحٍ متردد

كأن المدينة كانت تختبر نبضها للمرة الأولى بعد غيبوبة طويلة.

في حيّ بستان القصر نُصبت أعلام الثورة على أطراف الساحات ورفرفت كما لم تفعل منذ سنوات،

كأنها كانت تنتظر هذا الهواء أو هؤلاء الأيدي.

النساء صنعن الكعك بالتمر،

زُيّنت الأرصفة برسومات أطفال يرفعون أصابع النصر بعيون لامعة،

كأنهم لم يعرفوا الخوف قط.

وقف نزار في ساحة المدرسة يراقب المشهد

اقتربت منه سيدة ستّينية شعرها مكشوف ووجهها متغضّن،

وقالت له: " خيو أنا أم لشهيدين بس اليوم... رجعلي ابني الثالث: الوطن."

قال لها نزار بصوت هادئ:

"لو في عدالة بالدنيا كنّا زرعنا اسمك بكتاب التاريخ."

الضحك عاد الأعراس عادت.

في زقاق ضيّق من حيّ صلاح الدين عزف شابٌّ مكسور الساعد على العود وغنى :

"على العقيق اجتمعنا نحن وسود العيون ."

نزل المقاتلون إلى الأسواق لا للقتال،

بل لشراء الزيتون، والزعتر، والصابون الحلبي.

رائحة المدن لا تعود حقًا إلا حين تُشعل نار الطبخ

ويُطحن البصل تحت شفرات السكين.

في حارة العقبة كان أحد الرفاق يرسم وردة على جدارٍ مليء بثقوب الرصاص.

اقترب نزار منه ورأى أن فوهة بندقية مرسومة وسط الوردة قال له ضاحكًا:

"هالوردة إلها طلقة؟"

أجابه الشاب: "لأ... إلها ذاكرة."

في المساء أُقيمت أمسية شعرية مرتجلة.

قرأ أحدهم بيتًا لنزار قباني:

"بلادٌ تُنجبُ الموتى... وتدفنهم على مهلٍ ولا تُنجبُ القصائدَ إلا حين يتعب الحبر من الصراخ."

صفّق الحضور وبكى بعضهم.

جلس نزار قرب باب المسجد الأموي أخرج دفتره وكتب:

"ما الذي يجعل النصر نصرًا؟ أن نعود أحياءً؟ أن نرى الشمس في غير وقتها؟

أم أن نعرف،

ولو لمرة أننا كنا جديرين بالحبّ وأن الموت لم يكن النهاية؟"

قبل أن ينهض وضع الوردة اليابسة التي أعطته إياها الطفلة فوق بندقيته،

كأنها علم صغير لا يُرفع،

بل يُترك شاهدًا على لحظة انتصار...

قد لا تتكرر.

حين مشت المدن خلف خُطاهم

كان صباح الرحيل من حلب يشبه الوداع بعد ليلة عرس.

الأرض مبتلّة بندى غريب،

الهواء ثقيل برائحة الخبز الطازج والدم اليابس.

وقف نزار عند بوابة المدينة الشرقية

نظر خلفه طويلًا،

كأنّه يودّع شيئًا لم يُولد بعد، شيئًا بقي في الزوايا

بين الحجارة المكسورة.

قال لفهد بصوتٍ مبحوح:

"هي مو النهاية... هي بداية الطريق اللي كنا نحلم فيها وإحنا صغار."

ابتسم فهد

مرّت في عينيه سنوات كثيرة دفعةً واحدة،

قال: "و الله كبرنا بسرعة... وكبر الحلم معنا... وكأن الحلم صار أكبر من قدرتنا على حمله."

انطلق الرتل جنوبًا الشاحنات تمضي تحت سماءٍ متغيّرة،

غيمٌ يمشي معهم،

ضوءٌ يختبئ خلفه شمس خجولة،

في القلوب أغنية لم تُكتب بعد، تُولد بين كل نبضة ونبضة.

دخلوا حماة عبر الريف،

مرّوا ببساتين كانت ذابلة ثم عادت للحياة فجأة،

كأن الأرض نفسها تنفست بعد طول اختناق.

الفلاحون يلوّحون لهم من بين الشجر،

كما يلوّحون للمطر حين يُبشّر بالموسم.

في الساحة الكبرى، وقف نزار أمام تمثالٍ مكسور لا أحد يعرف من كان عليه،

أشار إليه وقال:

"هاد التمثال مو لشخص... هاد لمدينة صارت شهيدة وبطلة بنفس الوقت."

كانت المدينة تستقبلهم بزغاريد ودموع،

رايات خضراء وبيضاء وسوداء ترتفع،

وحناجر تصدح من القلب:

"حرية... وكرامة... وسورية وحدة مو طائفية!"

على درج الكنيسة القديمة جلست امرأة مسيحية مسنّة،

أمسكت يد نزار وقالت له بصوتٍ متهدّج:

"جايي متل نبوءة... بس نبوءة من ضوء، مو من نار."

احتفل الناس في ساحة العاصي،

غنّوا للدروب،

شربوا شايًا مرًّا كذكرياتهم،

ثم غفوا على رائحة الأمل،

كأن الفرح نفسه يحتاج إلى استراحة.

من هناك، كانت حمص تنتظرهم، مدينة تتلوّى من جراحها لكنها تتنفس،

تفتح ذراعيها لمن بقي وفيًا، لمن لم يبع الذاكرة.

دخلو من جهة بابا عمرو،

رأى شوارع بلا جدران،

بنايات تصرخ من كثرة الخراب لكنها ما زالت واقفة، ما زالت تتذكّر.

رجل طاعن في السنّ وقف عند عتبة منزله المحطّم،

رفع يده في الهواء وقال:

"البيت راح... بس الوطن، رجعتوه."

هنا لم تكن الاحتفالات صاخبة بل خافتة حزينة،أشبه بصلاة تمشي على قدمين لكنها صادقة، نقيّة كدمعة في حضرة السماء.

في حيّ الخالدية، جلس نزار إلى جانب طفل علّمه كيف يكتب كلمة "حرية" بيده اليمنى،سأله الطفل: "هي بتنكتب بشو؟"

قال نزار:

"بالدم... بس لازم نكمّلها بالحب."

في الليل، كتب نزار في دفتره:

"دخلنا حماة، فغسلت أرواحنا بالماء العذب،

ودخلنا حمص، فشربت من دموعنا... لكنها غفرت لنا.

النصر مو إنك تستعيد أرض

النصر الحقيقي إنو المدينة تفتحلك قلبها بعد ما كنت سبب وجعها."

عند الفجر، وقف نزار وحده عند دوّار الساعة،

رفع بندقيته نحو السماء وأطلق طلقة واحدة كأنها إعلان حياة... لا موت.

صيدنايا: تحت الجبل، فوق النداء

في قلب الجبل، حيث لا تصل الريح ولا يهرب الصوت

كان سجن صيدنايا ليس سجنًا فحسب، بل مقبرةً للزمن،

مكانًا تنكسر فيه الأيام، وتتقوّس فيه الأجساد حتى تنسى ملامحها.

هناك، في الظلمة التي لا تعرف الفجر،

يُنسى الإنسان، ويُمسخ إلى كائن هشّ،

يعيش بين حدود الجدران، يتنفّس الرعب، ويقتات على الذكرى.

في صيدنايا لا شيء يحمل اسمًا

لا أحد هناك يُدعى نزار، أو كرم أو يوسف

بل أرقام تُنادى بها الأجساد، لا الوجوه،

أرقام تتحرّك بصمت، تُضرب بصمت، وتُدفن بصمت.

كل شيء يُنسى... إلا الألم

الألم هناك ذاكرة بديلة، وساعة لا تتوقّف.

الموت ليس النهاية... بل أحيانًا بداية.

لم يُسجن نزار هناك،

لكن كرم كان في الجناح الأحمر

ذلك الجناح الذي قيل إن جدرانه تنزف ليلاً،

وأن صراخًا ما يزال يتردّد فيه حتى حين يصمت الجميع.

كرم، صديق البدايات، ورفيق الزنزانة في عدرا

الذي أخذه الظلام ذات ليلة

وغاب صوته عن الحياة

وظلّ نزار يحمل ذكراه كحجر على القلب.

في مجازر صيدنايا، لم يكن الموت عقوبة

بل نظامًا

كان الصمت خيانة، والنظر إلى الأعلى جريمة.

في الحجرات الكاذبة، كان السجناء يُسحبون عراة إلى أقبية لا يُعرف ما تحتها،

تُسكب الأرواح من الأجساد كما يُسكب الماء من وعاء مثقوب.

حين تقدّمت الفصائل نحو الجبل

لم يكن الهدف نصرًا عسكريًا فقط

بل فكّ عقدة الحلق، وكسر لعنة العار،

وإعادة النَفَس لأولئك الذين نسينا تنفّسهم.

اقتحموا الأبواب... لكن الأبواب لم تصدر صوتًا

كأنها كانت تنتظر منذ قرون أن تُفتح.

بعضها انفتح بركلة، وبعضها انفتح وحده،

كأن السجناء في الداخل جذبوه بأنفاسهم الأخيرة.

في الداخل، لم يجدوا مقاتلين،

بل بقايا بشر أجسادًا تشبه الظلال وأرواحًا لم تعرف الضوء منذ سنين.

بعضهم كان يبكي وبعضهم يضحك كالمجنون

بعضهم ظلّ جالسًا مكانه،

يردد كلمة واحدة: "شوفي .. شو صار ؟"

كأنهم لا يصدقون أن النهار عاد

أن الحلم لم يُقتل بعد.

وقف نزار أمام الباب الرئيسي وبين يديه صورة قديمة له وكرم،

في قلبه سؤال يرتجف:

"هل كنتَ هنا، يا صديقي؟ هل مررتَ من هذا الممر؟

هل لك ظلّ في هذا الجدار؟ هل صرخ اسمك هنا؟"

في الساحة جمّع الناجون أغراضهم الممزّقة وأحلامهم المؤجّلة خرجوا صفوفًا... واحدًا تلو الآخر،

كأنهم يخرجون من رحم القبر عيونهم لا تزال تخاف الضوء وأقدامهم تشكّ في الأرض.

على الجدار المتهالك، نُقشت جملة مجهولة المصدر:

"من خرج من صيدنايا، لم يخرج حيًّا... بل وُلد من جديد."

جملة أخرى منقوشة ببذرة زيتون على احد الابواب

أنا حيّ ما دمتَ تذكرني. وإن متُّ.

أخبرهم أن صيدنايا سقفُهُ من عظام، وأرضُه من خوف."

كتب نزار:

"هذا الجبل لا ينهار بالصواريخ بل بالحقيقة

صيدنايا ليس مكانًا بل جرح محفور في ذاكرة وطن،

يرفض أن يُشفى يرفض أن يُنسى."

في المساء، حين أُغلقت أبواب السجن للمرة الأخيرة

قال أحدهم وهو ينظر للسماء من الشباك المخلوع:

"اللعنة على الجدران التي سكتت... والخلود للأصوات التي نجَت."

عند أسفل الجبل، وقفت أمّ شابّ لم تعرف مصيره

كانت تحمل صورته مطويّة بين راحتيها كأنها تتلو صلاة.

حين رأت الخارجين، لم تصرخ، لم تركض، فقط همست:

"كلّكم أبنائي... بس ابني معكم ؟."

اقترب منها أحد الناجين، وضع يدًا مرتجفة على كتفها

قال بصوت بالكاد يُسمع: "شفته... كان يبتسم."

أغمضت عينيها، ومسحت دمعة، وقالت: "هيك بكفي."

في الطريق إلى الأسفل لم يتحدث أحد

كانت الجبال من خلفهم تزداد صمتًا

كأنها تُقسم على ألا تبتلع أحدًا بعد الآن.

صمت القصور

لم يكن ليلًا عاديًا.

حتى الظلام تلك الليلة بدا غريبًا، أثقل من المعتاد،

كأنه يحمل سرًّا لا يقدر على كتمانه.

لا أصوات في الخارج. لا هدير دبابات، لا صفارات إنذار،

انتظار طويل فقط ينخر العصب.

العاصمة كلها كانت كمن يكتم أنفاسه، ينتظر لحظة واحدة: الرحيل.

داخل القصر، لم تُسمع سوى وقع الأحذية الثقيلة على الرخام.

رجال بملابس مدنية، تعابيرهم متخشبة،

بعضهم لم ينزع أجهزة اللاسلكي عن أكتافه رغم أن البثّ صمت منذ ساعة.

في الردهة العليا،

وقف "هو" صامتًا، بلا كلمة.

عيناه زجاجيتان.

لا أحد تجرأ على مقاطعته،

حتى رجال حمايته المعتادين صاروا هامشيين.

وحده كان يعرف أنه لا هروب من النهاية،

فقط تأجيلٌ لمشاهد الانهيار.

همس أحد المرافقين:

"السيارات وصلت."

رد الآخر: "والطريق؟"

– "مفتوح. نقاط التفتيش فُرغت. لا أحد بالخارج."

نظر الهارب إلى ساعته، ثم قال بهدوء يكاد لا يُسمع:

"نمضي."

في الأسفل، تكدّست بعض الحقائب الرمزية.

أقراص صلبة، مستندات مختارة، أجهزة تشفير.

الأوامر كانت واضحة: لا صور، لا مذكرات، لا أشياء شخصية.

فقط ما لا يمكن أن يقع في يد الناس.

فُتحت أبواب القصر،

خرج الموكب.

ثلاث سيارات مصفحة، محركاتها تدور بهمس حذر.

دخل الرجال، دون وداع، دون حتى نظرة أخيرة،

كأنهم يعرفون أن هذا المكان لن يرحم ذكراهم لاحقًا.

في السيارة الأولى، جلس الرجل الذي طبع وجوه الناس بالخوف لعقود.

لم ينطق. يده اليمنى ترتجف ببطء، وعيناه لا تتحركان.

بجانبه، مرافق قديم، يراقب الطريق ويعضّ على لسانه كي لا يصرخ.

مرّ الموكب بشوارع لم يجرؤ أحد على السير فيها لسنوات.

شوارع كانت مخصّصة للزائرين المحميين،

للعربات السوداء والزجاج المعتم.

كانت خالية.

الأشجار واقفة كحراس محايدين،

البيوت مغلقة

قال أحد السائقين عبر اللاسلكي:

"اقتربنا من مطار المزة... مهجور بالكامل."

ردّ الآخر:

"الطائرة تعمل... نجهّز للصعود خلال خمس دقائق."

حين توقفت السيارات عند المدرج، صعد الجميع في صمت. لم يتحدث الطيار. أدار المحركات فقط.

في تمام الساعة الرابعة وسبع دقائق... أقلعت الطائرة.

لم يلوّح أحد. لم تخرج صرخة. لم يُشعل دخان خلفها.

فقط... صمت المدينة صار أوسع.

على الطرف الآخر من المدينة، في نفس اللحظة تقريبًا كانت الأبواب الثقيلة للقصر تُفتح لأول مرة دون أمر.

بابٌ كان لا يُطرق، صار يُدفع بالأكتاف لم ينكسر... بل استسلم.

دخلت أولى مجموعات الثوار.

لا بنادق مرفوعة، لا رايات ترفرف بعد، فقط خطوات ثابتة،

وأعين تمسح المكان، كأنها تبحث عن معنى.

كان القصر صامتًا. لا شيء يتحرك فيه سوى الغبار.

أحدهم صعد السلالم الرخامية.

كل درجة كانت تبدو كأنها تنهض من موتٍ بطيء.

في الطابق العلوي، فتح بابًا ثقيلًا ودخل.

رائحة الرماد، ورق محترق.

طاولة لا تزال عليها بقايا قهوة باردة، وكرسي دُفع بعنف،

كأن أحدهم وقف فجأة وهرب.

قال بصوتٍ خافت:

"خرجوا للتو... قبل دقائق فقط."

بدأ الآخرون بالانتشار فتحوا الغرف واحدة تلو الأخرى.

غرف نوم باذخة، مكتبات مغلقة، خزائن فارغة،

ثياب متروكة بعجلة.

المشهد كله كان يصرخ: هربوا... ولم يأخذوا شيئًا سوى أنفسهم.

في إحدى الصالات، وقف أحد الثوار ينظر إلى سقف مرصّع بزخارف مذهبة.

لم يكن مأخوذًا بالفخامة، بل بالصمت:

"كل هذا كان يُدار من هنا؟ كل الموت... كل القهر... كل هذا الخراب؟"

رد عليه شاب آخر وهو يفتح نافذة ظلت مغلقة لسنوات:

"الريح دخلت أخيرًا... اسمع. المدينة تتنفس."

في الخارج، بدأت الحشود تقترب من بوابة القصر.

وجوه متعبة، لكنها مدهوشة.

البعض رفع هاتفه لتصوير لحظة لم يتخيلها حيًا.

آخرون بكوا. لا من الحنين، بل من ثقل ما مضى.

وقف رجل مسن عند الباب، نظر للداخل، ثم تمتم بصوت أجش:

"من هنا كانوا يقررون مَن يعيش ومَن يموت..."

في دقائق، دخل الناس القصر. لا لينهبوا. بل ليفهموا.

ليروا بأعينهم أن من حكمهم...

كان إنسانًا. ينام، يخاف، ويهرب

لم يكن القصر الوحيد الذي سقط تلك الليلة بل كان أول الأحجار.

في اللحظات التالية، كما لو أن المدينة نفسها تنفست بعمق،

بدأت الأبواب المغلقة تُفتح واحدة تلو الأخرى.

بوابة "القيادة العامة"، التي لم تُفتح منذ عقود إلا للقادمين بقرارات الموت، صارت الآن مفتوحة على مصراعيها.

الحراسة اختفت، الممرات الطويلة التي كانت تمشي فيها الأوامر الحديدية،

صار يسير فيها شبّان يحملون هواتف، لا بنادق.

دخلوا القاعات الفخمة، التي لم يرها أحد من قبل إلا في الكوابيس.

مكاتب ضباط الأمن، المخابرات، الإدارات العامة... كلّها كانت فارغة.

الأوراق لا تزال على المكاتب.

تقارير التجسس على الناس، قوائم المعتقلين،

خرائط المدن... كلها مكشوفة فجأة، كأن الحقيقة قررت أن تفضح نفسها.

في غرفة اجتماعات في مبنى "الأمن السياسي"،

وجد أحد الشباب سبورة ما زالت عليها خطة مواجهة المظاهرات. تواريخ، أسماء، وأوامر بالإعدام.

جلس أمامها لحظة، قرأ، ثم مسحها بكفّه، كأنّه يحرّر التاريخ من وصمة.

في ساحة وزارة الدفاع، وقف جنود قدامى منشقون،

لا يصرخون، لا يتفاخرون. فقط ينظرون إلى المبنى العاجي، ويقول أحدهم:

"خدمنا هنا مرة ... ولم نعد الى هذا الباب إلا منتصرين."

بالقرب من البرلمان، كانت الجموع تسير بهدوء لا أحد يهاجم. لا أحد يحرق.

كأن الجميع يشعر بأنهم في متحف لجريمة انتهت، لا في ساحة انتقام.

في الشام القديمة، كانت المآذن ترتفع بصوتها،

لا لتعلن الصلاة فقط، بل لتقول: "نحن هنا، ولا أحد يخرسنا بعد الآن".

الكنائس دقّت أجراسها أيضًا.

لم يكن ذلك تنسيقًا... بل اتفاقًا غير مكتوب بين الأرواح.

في تلك الليلة، توجّه بعض الناس إلى "قصر الشعب"،

المبنى الرابض على تلة كأنّه يراقب المدينة منذ الأزل. لم يكن فيه أحد.

دخل الثوار والناس، مشوا في أروقته، تأملوا صالاته الواسعة، الشرفات التي كانت تطلّ على أحياء محاصرة.

أحدهم صعد إلى الشرفة الكبرى. فتح الستائر، نظر إلى المدينة التي تمتدّ تحت ضوء الفجر.

وقف هناك لحظة، ثم رفع يده كمن يُسلّم على وطن طويل الغياب.

"شوفوا...الشام رجعت تشوف حالها."

في الساحات، بدأ الناس يتكلمون بصوت عالٍ.

للمرة الأولى منذ سنوات، لم يتلفتوا حولهم قبل أن يقولوا رأيهم.

الأطفال ركبوا دراجاتهم وسط الشوارع،

الشباب كتبوا على الجدران: "سقط الصمت."

وسط كل هذا النور، بقي شيء من الحزن.

في أحد الزوايا، جلس رجل يُمسك بصورة ابنه المعتقل منذ عشر سنوات، ينظر إلى المباني المهجورة ويهمس:

"أين أخذوه؟ هل مرّ من هنا؟"

في قبو إحدى المقار الأمنية، تم فتح زنزانة فارغة.

أسماء محفورة على الجدران، بأظافر أناس لم يعرفوا إن كانوا سيُذكرون يومًا.

احد الثوار قرأها كلها، ثم قال: "اليوم... رجعتوا."

العاصمة لم تحتفل. بل تنفّست.

الهتافات كانت خافتة. لا صراخ انتصار، فقط صدق.

دخل الناس أماكن كانت محرمة، دخلوها بشرف.

لأنهم كانوا يعلمون: لم يثوروا ليأخذوا مكان من رحل... بل لينهوا زمنًا لا يعود.

في السماء، كانت الطائرة الصغيرة تبتعد أكثر، تخترق الغيم، وتقلّ أولئك الذين ظنّوا أنفسهم خالدين.

في الأسفل، كانت أرضٌ كاملة... تولد من جديد.

السادسة و18 دقيقة: سوريا من دون بشار الأسد

كانت سماء دمشق في ذلك الصباح تختلف عن كل صباحٍ مضى،

كأنها ترتدي حُلّة جديدة من الصمت المهيب والانتظار المشحون بالأمل.

لم يكن الهواء بارداً ولا دافئاً،

بل كان مشحوناً برائحة التغيير التي تتسلل بخفة

بين أزقة المدينة وشوارعها القديمة.

في لحظة مثل هذه، تشعر أن التاريخ نفسه يلتقط أنفاسه،

وأن المدينة كلها على وشك أن تُكتب صفحة جديدة من نضالها الطويل ..

كان الفجر هشًّا كقلب أمٍّ

سماء دمشق، رغم اختناقها بالدخان، كانت صامتة على نحوٍ غريب،

كأنها حبست أنفاسها في اللحظة الأخيرة قبل الولادة.

هواء المدينة لم يكن باردًا ولا دافئًا،

بل أقرب إلى يدٍ مرتجفة تُمسك بحافة الانتظار.

من أعلى تلة في القابون، وقف نزار ومعه رفاقه يتطلّعون إلى الأفق،

حيث تتبدّى لهم العاصمة كسرٍّ أوشك أن يُقال.

قال أحدهم وهو يحدق في بيوت المدينة المتراصة:

"ما عم صدّق... هاي هي؟ هاي هي الشام؟"

ردّ نزار، بنبرة متأملة، كأنما يُكلّم مدينة وليس بشرًا:

"هي هية ... الحلم.."

لم يكن الزحف نحو دمشق معركةً، بل انسيابًا حارًا مثل نهرٍ تخلّى عن قيده.

المقاتلون لم يزحفوا، بل تسابقوا.

كانوا يدخلون الأحياء كما يدخل العشاق إلى بيوتهم بعد غيابٍ طويل،

لا يطرقون الأبواب، بل يفتحونها بنبض القلب.

لم تكن هناك مقاومة تُذكر.

الجيش انسحب فجأة، بلا بيان، بلا قتال، وكأنه خسر الإيمان بما يُقاتل لأجله.

المدرّعات متروكة على أطراف الطرق،

الجنود تركوا بزّاتهم في الزوايا كأن المدينة لفظتهم كما تلفظ الأرض رماد الخريف.

في الساعة الخامسة والربع، اجتاحت أولى الكتائب حيّ برزة،

تتابعت الأحياء كما تتساقط أوراق الدولة القديمة.

كفرسوسة، المزة، أبو رمانة، القابون، باب توما، المالكي، العدوي، دمر...

كلّها سقطت في زمنٍ أقصر من إعلانٍ إخباري، دون رصاصة،

دون صراخ، فقط بصوت الأحذية وهي تدوس الأرض التي طالما اشتاقت لمن يدافع عنها لا من يقهرها.

عند السادسة و18 دقيقة صباحًا، دوّى الخبر على شاشة قناة العربية،

بصوت مذيع لم يستطع إخفاء ارتجافها:

الساعة الآن السادسة وثماني عشرة دقيقة ..سوريا من دون بشار الأسد

"الرئيس السوري بشار الأسد يغادر دمشق على متن طائرة روسية...

سقوط النظام في سوريا دمشق الآن تحت سيطرة المعارضة المسلحة."

في اللحظة ذاتها، كأن أحدًا ضغط زرًّا مخفيًّا في قلب الزمن،

انفجرت المدينة بالأصوات.

من كل حيّ، من كل بيت، من كل نافذة، تعالى التكبير.

المآذن، التي خُنقت طويلاً، صرخت بصوتٍ واحد: "الله أكبر!"

تداخلت الأصوات بين المساجد،

تحوّلت إلى سيمفونية مزلزِلة.

خرج الأطفال يقرعون أواني المطبخ، النساء زغردن حتى بُحّت أصواتهن،

الشباب عانقوا بعضهم بدموع لم يعرفوا من أين جاءت.

الناس يركضون في الشوارع كما لو أنّ القيود قد سقطت من على أقدامهم للتوّ.

ارتفعت أصوات العجائز:

"سقط الطاغية!"

"سقط هُبَل!"

تردّد الصدى في الحارات الضيقة،

تكرّرت العبارات كأنّها صلوات تُقال للمرة الأولى منذ خمسين عامًا.

في ساحات الأمويين والعباسيين والسبع بحرات،

احتشد الناس كمن خرج من قبو الزمان،

يحتفل لا بالحاضر، بل بانتهاء الكابوس.

رجالٌ مسنون عانقوا الشباب والدموع تملأ عيونهم،

نساء رفعن صور أبنائهن الشهداء كأنهم عادوا للحياة.

في الجامع الأموي ركع المئات على الأرض وسجدوا يبكون.

رجل خمسيني بوجه مجعّد كحجر قديم

جلس في الزاوية يهمس:

"الله استجاب... بس بعد ما خلّى القلب ينكسر ألف مرّة."

في الأزقة، كان هناك مَن يوزع الحلوى... في دمشق!

كعك بالتمر، برازق، سكاكر.

في شارع بغداد، فتحت البيوت نوافذها على مصراعيها،

علّقت النساء الشراشف البيض على الشرفات كأنهن يُعلنّ بدء العرس.

لكن الفرحة لم تكن وحدها.

الفراغ الذي خلّفه الانسحاب المفاجئ كان مرعبًا.

القصور الرئاسية، المقرات الأمنية، مباني الحزب...

كلها أصبحت خالية.

في حي المالكي دخل بعض المدنيين إلى أحد القصور

وجدوها مهجورة تمامًا، لا حرس، لا ضباط،

لا حتى ورقة واحدة على الطاولة.

في الزوايا... صور ممزقة، أوراق نصف محروقة،

وجدرانٌ عليها آثار دماء لا أحد يعرف قصتها.

بدأ الناس يتجمهرون أمام أبواب تلك القصور، وشيئًا فشيئًا،

تحوّل بعضهم إلى مجموعات تنهب وتسرق.

شبابٌ يخرجون حاملين شاشات، ثيابًا، حتى أدوات مطبخ.

كان مشهدًا مؤلمًا... أن ترى مدينةً تُولد من جديد،

بينما هناك من يجرّدها من كرامتها في اللحظة الأولى.

قال نزار وهو يراقب المشهد من بعيد:

"الحرية مو إنك تفكّ باب... الحرية إنك تبنيه."

في الشوارع، امتلأت الأرض بالأسلحة.

بنادق مرمية على الأرصفة، صناديق ذخيرة مفتوحة،

سيارات عسكرية منسية.

الأطفال يركضون بينهم، والمقاتلون يصرخون محذّرين:

"إبعدوا... في متفجّرات!"

لكن لا أحد يسمع.

الناس مخمورون بالفرح، لا يدركون تمامًا ما يحدث.

لم تنم دمشق.

سهر الناس حتى الفجر،

كأنّ المدينة قررت أن تحتفل قبل أن تبدأ الحداد على من رحلوا.

النار اشتعلت في الساحات،

الشاي يُسكب في أكواب بلاستيكية،

الأغاني الثورية تتعالى من الهواتف المحمولة،

والعبارات تتكرر على الألسن:

"سوريا من دون بشار الأسد!"

"سقط الطاغية!"

"رجعنا الشام!"

نزار، الذي جلس قرب سور الأموي، كان يحدّق في السماء بصمت.

في عينيه دمعة لم تسقط، وفي قلبه سؤال ظلّ يردّد نفسه:

"هل يستحق هذا الفرح... كل هذا الدم؟"

فتح دفتره، وكتب:

"لقد دخلنا العاصمة لا كغزاة، بل كأبناء عائدين من منفى طويل.

دمشق لم تقاتلنا... بل غسلت أقدامنا بدموعها.

لقد رحل الجلّاد، وبقي الوجع.

السادسة و18 دقيقة... هذا وقت الحياة."

في الصباح، خرجت الشمس على مدينة تغيّرت إلى الأبد.

لا أعلام على الدوائر الرسمية، لا تماثيل، لا صور للقائد.

الناس ينظفون الشوارع، يكتبون على الجدران:

"الحريّة ولدت هون."

"لا زعيم بعد اليوم."

"الدم ما بيروح هيك."

دمشق لم تكن مدينة محررة فقط بل مدينة تحاول أن تتعلم كيف تُحبّ نفسها من جديد.

كيف تعيد تشكيل ملامحها دون وجه بشار كيف تمشي بدون ظلال الديكتاتور.

الأيام التي تلت لم تكن سهلة ولم يكن السلام حاضرًا على الفور.

لكن في تلك اللحظة – السادسة و18 دقيقة – عرفت سوريا، للمرّة الأولى منذ عقود، أن الطاغية سقط.

وأنها يمكن أن تبدأ من جديد، مهما كان الثمن.

حين مشت القصائد في شوارع دمشق

لم تكن دمشق في ذلك الصباح مجرّد مدينة مستعادة

بل امرأة خرجت لتوّها من الأسر،

شعرها مبعثر، عيناها دامعتان،

ملامحها شاحبة كأنّها نجَت من الحريق،

واقفة، شامخة، تفتح ذراعيها لأبنائها دون أن تسألهم من تأخر ومن خان،

ومن عاد متأخرًا بقلب مكسور وراية مهترئة.

المدينة لم تحتج لأصوات عالية كي تُعلن عودتها

كل شيء كان يهمس الجدران، الأرصفة، الأشجار،

حتى الحجارة المنثورة عند زوايا الأرصفة كانت تُومئ كمن ينتظر حضنًا لا تفسيرًا.

دخل نزار إلى شارع أبو رمانة

كان الشارع كما تركه في ذاكرته لكنّ شيئًا ما كان مختلفًا

الأشجار ما زالت هناك، باسقة

الحواجز الحديدية التي كانت تشطره إلى نصفين قد اختفت،

والرائحة تغيّرت...رائحة الخوف القديمة تلاشت،

وكأنّ المدينة غسلت صدرها أخيرًا من أنفاس الرعب.

في ساحة المرجة، رأى رجلًا مسنًا واقفًا بجانب الهاتف الأرضي المعطّل،

يمدّ يده نحوه كما لو كان ينتظر مكالمة من خلف الموت.

اقترب نزار وسأله بلطف:

"مين بدك تحكي؟"

رفع الرجل نظره إليه وقال:

"بدي أتصل بزوجتي... ماتت بالـ2013،

بس يمكن هلأ، من بعد الحرية، يصير في خطّ بيني وبينها."

ثم ابتسم كمن يراهن على المستحيل... لكنه لا يتخلّى عنه.

في حديقة الجاحظ،

جلس شبّان على العشب الأخضر، يعزفون على العود والغيتار،

وغنّوا بصوت خافت لنزار قباني:

"علّمني حبّكِ أن أحزن... وأنا محتاجٌ منذ عصورٍ لامرأةٍ تجعلني أحزن..."

ضحك نزار، لكنه شعر بشيء يعتصر صدره...

فهو لم ينسَ حبيبته التي افترق عنها ذات موت،

ولا كرم الذي رحل ولم يودّعه،

ولا نسي كل الدموع التي سقطت كالمطر على تراب الثورة.

في باب توما،

ركض الأطفال خلفه، وجوههم ملوّنة بالتراب والفضول،

وسأله أحدهم ببراءة:

"أنتو ربحتوا الحرب؟"

نظر نزار إلى عيونهم الصغيرة وقال:

"ما ربحناها نحنا خلّصنا منها بس الحرب اللي جاية أصعب

حرب البناء حرب الصدق حرب ما ننسى ليش بلّشنا."

في مشفى المجتهد، زار الجرحى رأى شابًا فقد ذراعه،

آخر بعين واحدة، وثالثًا بلا قدم،

كانوا يبتسمون يضحكون أحيانًا كمن انتصر على القدر.

حين سألهم: "شو فيني ساعدكون شو ناقصكون ؟"

أجاب أحدهم، وهو يربّت على قلبه:

"الحرية بتكفّي... والباقي بيتصلّح."

قبل أن يغادر، أخرج نزار دفتره،

راح يكتب فيه بحبر يشبه الدموع:

"دخلنا دمشق لا كفاتحين...

بل كأبناء عادوا ليكنسوا الغبار عن وجوه أمهاتهم

سقط التمثال، نعم... لكن الجدران بقيت

الحرية لا تُزرع بالرايات، بل تُبنى على الصدق

علينا الآن أن نعيد بناء المعنى،

لا الحجر فقط أن نعيد للمدينة روحها، لا زينتها."

الحرية ليست لحظة سقوط، بل رحلة قيام."

ولادة الوطن

كانت السماء رمادية، لكنّها هادئة،

الشمس لا تزال تجرّ خيوطها على وجه المدينة كأنّها تتحسّس الجدران القديمة تسألها:

"هل تذكرين من مرّ من هنا؟"

الصباح الأول بعد النصر خرج الناس من بيوتهم بحذر

بعضهم لم يخلع ثياب النوم

كأنّهم يخشون أن يكون كلّ ما جرى حلمً وأن توقظهم رصاصة في الرئة.

المدينة لا تزال تحمل آثار الدخان شبابيك مكسورة،

أبواب مفتوحة كقلوب خائفة

شوارع واقفة على حافة الصمت تنتظر أن تنبت فيها الكلمات من جديد.

لم تكن هناك خطابات ولا بيانات،

بل شيء يشبه الصلاة

صمتٌ طويل يمشي فيه العابرون على رؤوس أصواتهم.

كان يمشي وحده في شارع الحمراء

يمرّ قرب المقهى القديم الذي سُوّي بالأرض

المكتبة التي غابت خلف الركام،

والمخبز الذي عاد ليشعل ناره من جديد

كل شيء بدا كأنه يُعيد تذكّر اسمه.

على الرصيف وقف طفل ، يبيع الورد.

سأله نزار: "شو اسمك؟"

قال: "حمزة."

"ليش عم تبيع ورد؟"

أجاب الطفل:

"لأنو الورد بيشبهنا... بينكسر، بس بيرجع بيوقف."

شاب يكنس الزجاج من مدخل عمارة مهدّمة :

"ما عاد بدنا حكي كبير... بدنا حدا يضل واقف لما الحيط يوقع."

هزّ نزار رأسه، لم يقل شيئًا كان يعرف أن المعركة الأصعب

لم تكن في الشوارع، بل في العودة إليها.

في تلك اللحظة، لم يكن نزار قائدًا كان واحدًا منهم

يضع الطوب على الطوب يمدّ خرقة على الجرح،

يساعد سيّدة في تعليق ستارة جديدة على نافذة مكسورة.

ليلا جلس على سطح منزله القديم الذي عاد إليه خاليًا... بلا أهل، بلا صور،

لكنّه لم يكن وحيدًا المدينة كلها كانت معه.

المدينة التي لم تمت التي دفنت أبناءها ثم نهضت ها هي تفتح عينيها،

لا لتبكي بل لترى إلى أين تمشي.

كتب نزار:

"ما بعد المعركة ليس النصر، بل المعنى أن يعود الإنسان إلى الحيطان التي أحبّها إلى الشرفة التي كانت تزرع الورد كل ربيع

إلى المقهى الذي علّمه كيف يحب إلى بيته... حتى لو لم يبقَ فيه شيء.

هذا هو الوطن: أن تكون قادرًا على البدء من جديد ولو كانت يدك ترجف وقلبك مثقوبًا من التعب."

في صمتٍ خفيف بدأت سوريا تحاول أن تكتب اسمها من جديد

لا بالحبر، بل بالحب،

بأيدي الناس وبحكايات لا تُروى على المنابر،

في الممرات

في الرغيف،

في قبلة أمّ على جبين ابنها العائد من الموت.

بعض الأوطان لا تُبنى بالحجارة،

بل بمن بقي لديهم قلبٌ ينبض رغم كلّ شيء

وفي آخر الزقاق كان الطفل نفسه،

"حمزة"، عاد في المساء يحمل شتلة صغيرة بين يديه

حفنة تراب بعلبة طلاء قديمة،

غسلوها من رماد الأيام

يساعده رجل مسن، بكفّين خشنين يحملان ذاكرة بيوت سقطت وما سقطت

غرسا الشتلة بجانب الحائط المهدم،

قال العجوز:

"من هون، من تحت الركام، بتطلع أول زهرة."

رسمت طفلة بجوارهما بيتًا على الجدار المتآكل

بيتًا له شباك وشجرة وسقف لا يسقط،

بالوان باهتة لكنها مبتسمة

في زاوية الرسم، كتبت اسم أمّها الراحلة...

بحبر أحمر من قلم مكسور.

في الساحة الصغيرة اجتمع بعض الجيران حول فرن طيني

أخرجوه من تحت الردم،

أشعلوا فيه نارًا من حطب الأثاث المكسور،

كانت النار دافئة، لا تحرق

المكان، رغم الغياب، بدا كأنه يستعيد نبضه.

ضحك شاب وقال:

"رجعنا نحكي عن بكرا...لانو صار في بكرا، و نحنا لسه هون."

أغنية في ساحة الأمويين

لم تكن دمشق أجمل مما كانت عليه ذلك الصباح

كانت متعبة كمن نهض من غيبوبة طويلة،

مجروحة حتى نخاع الروح،

تنزف من نوافذها، من حجارتها،

من ظلال الأزقة التي شاخت قبل أوانها،

لكنها كانت تبتسم.

ابتسامة نادرة، ليست من ذلك النوع الذي يُرسم على الشفاه،

بل من ذلك النوع الذي يشقّ القلب من الداخل

يخرج منه نور صغير،

كأن المدينة – رغم كل شيء – قررت أن تنجو،

أن تقوم من الرماد، أن تحكي للعالم:

"أنا مدينة لا تُمحى، أنا جرحٌ لا يموت، لكنني لا أُكسر."

لم يكن خروج الناس من بيوتهم عاديًا،

لم تكن خطواتهم مجرد انتقال من مكان إلى آخر،

كانوا يخرجون من داخل قلوبهم، من دهاليز الألم،

من سجون الخوف الطويل.

نساء يلفّهن خمار الياسمين،

كأنهن يحملن عبق دمشق القديمة فوق أكتافهن،

ورجال يرمقون السماء بأعين لم تعتد الأمل،

أطفال يلوّحون بأعلام صغيرة، مصنوعة من قماش ممزّق،

تحمل أحلامًا خيالية،

أحلامًا لم تجرؤ المدينة على نطقها من قبل.

وقف عند مدخل الساحة، كأن قدميه لا تريدان التقدّم،

عيناه تائهتان بين الحاضر والذاكرة،

رمق جبل قاسيون من بعيد،

ذاك الجبل الذي رأى المدينة تنزف ولم يُغمض عينيه،

الجبل الذي حمل صمتاً ثقيلاً يوازي وجع قرن.

نظر إلى بردى الذي لطالما غنّى للعشاق،

لكنه في السنوات الأخيرة صار يبكي وحده،

كأن الدمع ينساب بين ضفتيه

كأنّه يعود للحياة،

كأنّه يهمس للشجر والحجر:

"دمشق ما زالت هنا."

في قلب ساحة المرجة، حيث اختلطت ذكريات الحرب بنبض الحياة،

امتزج ضوء الصباح بأصوات الناس، ضحكاتهم، بكاؤهم، غناؤهم،

الأرض نفسها كانت تغني،

حجارة الأرصفة تنشد:

"لقد عدنا... رغم كل شيء عدنا."

الهواء مشبع برائحة الياسمين،

برجفة الأشجار التي تنتظر لمسة حياة،

صدى خطوات الناس الذين لم يأتوا ليحتفلوا فحسب.

بل ليشهدوا القيامة،

قيامة وطن من تحت الركام.

قلوبهم تسارعت بنبضٍ واحد،

كلّ نفس يحمل عبءَ سنواتٍ كاملة،

ينتظر أن يُزفَّ هذا الفرح كعروسٍ طال انتظارها.

في الزاوية، كانت هناك امرأة ،

تصفيقها مرتعش كأن الزمن يرتجف في يديها،

همست بدمعة لم تسقط بعد:

"يا رب... ما نموت قبل ما نشوف سوريا عم تضحك."

رجل جالس على كرسي متحرك،

غنّى بصوتٍ مبحوحٍ صادقٍ يخرج من قلب التراب:

"ارفع راسك فوق... أنت سوري حر."

في تلك اللحظة، اختلطت أصوات الرصاص بأنغام العود،

رصاص؟

نعم،

لم يكن رصاص الخوف ولا الطغيان،

بل رصاص فرحٍ أخرق، خجول،

حتى الموت نفسه وقف على الرصيف، ينظر إليهم بصمت،

تاركا الحياة تمرّ من أمامه دون أن يوقفها.

اقترب نزار من صديقه مذهولاً كمن خرج للتو من حلم،

أشار نحو المآذن القديمة

القلاع التي بقيت رغم كل ما تهدّم

قال بصوت مبحوح: "هل كل هذا... حقيقة؟"

ابتسم صديقه، ابتسامة حزينة، كأنها من زمنٍ آخر قال:

"الحقيقة؟

لا... هذه أغنية فقط.

لحن عشناه بوجعنا وأملنا، وعلّقناه على صدورنا ."

في زوايا الساحة، علّق الناس صور الشهداء،

تلك الوجوه التي لم تمت في الذاكرة،

كانوا ينظرون إليها لا بالبكاء،

بل كأنهم يحدّقون في نجمة لا تنطفئ، كأنهم يقولون لها:

"نحن هنا... وأنتِ لم تذهبِ سدى."

في إحدى الزوايا، كانت فتاة شابة تعزف على كمان قديم،

لحنًا بلا اسم، بلا كلمات، بلا تاريخ،

قال أحد الحاضرين:

"هذه المقطوعة ليست وطنية، لكنها تذوّب القلب... كأنها تحمل الوطن كله."

ضحك رجل آخر وقال:

"يمكن اسمها... سوريا سوريا الحلوة."

رقص، رقص متعثر لكنه صادق،

رجال يرفعون بنادقهم لا ليموتوا، بل كأنهم يرفعون موتهم السابق ويقولون: "انتهى."

نساء يزغردن بين الأنقاض تطمس الزغاريد صوت القذائف،

تعيد للمدينة أنفاسها الأولى كأن الحياة تخرج من بين الأنقاض كالعشب بعد المطر.

وسط كل ذلك، رفع نزار رأسه نحو السماء،

شعر – للمرة الأولى منذ سنين طويلة – أن الأرض تحت قدميه لم تعد سجنًا،

بل وطنًا... بيتًا... حضنًا مفتوحًا

رأى وجوهًا مألوفة مقاتلين جاؤوا من الجبهات،

أجسادهم محروقة، أرواحهم تلمع،

عيونهم تقول كل ما لم يُقل

تعانقوا، لا بكلمات، بل بصمت يشبه الدعاء،

عناق فيه كل وجع السنوات الماضية،

وفيه كل الرجاء للسنوات القادمة.

أغمض نزار عينيه،

همس باسمٍ كان يحمله في قلبه منذ أول رصاصة:

"كرم... اليوم سوريا ضحكت كان يجب أن تكون هنا... لتضحك معنا."

ذلك اليوم لم يكن نصراً سياسيًا ولا مجرد انتهاء معركة،

كان نصراً إنسانيًا انتصار الحياة على الحصار،

وانتصار الأغنية على صوت القبور.

في لحظةٍ خاطفة، شعر الجميع أنهم صاروا أكبر من جراحهم،

كأن الروح السورية استعادت ملامحها القديمة،

نقاءها الأول قبل أن يُفسدها الرماد.

ارتفعت الأيادي نحو السماء، لا طلباً للغيث،

بل شكرًا على النجاة كأنهم يلمسون الغيم بأمنياتٍ مؤجلة.

طفل صغير تسلّق كتف أبيه ولوّح بعلمٍ ملوّن،

في عينيه بريق نصرٍ لم يعشه، لكنه آمن به كأنه قد خُلِق معه.

كانت العصافير تحلق فوق الساحة بأعداد لم تعتدها

كأنها هي الأخرى

قررت أن تعود أن تبني أعشاشها من جديد فوق أغصان الأمل.

امرأة شابة أمسكت بيد أمّها،

وقالت لها بصوت متهدّج: "شايفه يا ماما؟ نحنا عشنا لهالنهار."

رجل عجوز بكى وهو يتكئ على عصاه،

لم يبكِ لأنه ضعيف، بل لأنه تذكّر من لم يأتِ، ومن بقي صوته حبيس التراب.

المآذن رفعت أذانها،

يكن نداء صلاة فقط بل كان نداء حياة

صوتاً يقول: "لا زلنا على قيد الحياة"

البيوت المهدّمة حول الساحة لم تعد مجرّد أطلال،

بل شهادات على الصبر،

على أنّ القلوب لا تزال تخفق تحت الركام.

شمعة أُشعلت على حجرٍ مكسور،

كانت تضيء قليلاً،

لكنها أضاءت بما يكفي لتقول:

"لا ظلام يدوم."

في خلفية كل هذا المشهد،

كانت الموسيقى مستمرة، لا تعلو ولا تنخفض،

فقط تبقى... كأنها وعدٌ بأنه

لا صمت بعد اليوم.

خفَ الضجيج شيئًا فشيئًا، لا لأنه انتهى،

بل لأنه دخل إلى القلب

صار الهدوء لحظة صلاة داخلية،

حيث يتلاقى الحاضر مع كل مَن رحل،

ويستعيد كلٌّ منهم اسمه المفقود.

وقف بعيدًا، يراقب،

لا يبتسم ولا يبكي...

احس فقط أنه صار جزءًا من هذه الأرض،

من حجرها، ودمعها، ونبضها.

غيمة وحيدة عبرت بهدوء،

كأنها تحمل الرسائل التي لم تُكتب،

والأغاني التي لم تُغنَّ

بينما انطفأت آخر شمعة،

لم يعُد هناك خوف من العتمة...

بل إيمانٌ بأنّ الضوء صار يسكن فيهم، ولن يرحل.

من تبقّى من الحكاية

لم يكن نزار يتوقع أن يسمع اسمه في ذلك الزقاق لكنه سمعه واضحًا،

كأن المدينة نفسها تناديه بعد طول صمت.

"نزار؟" التفت ببطء

العينان لا تصدقان الزمن ثقيل والصوت صدئ،

لم يكن يتوقع أن يسمع اسمه في ذلك الزقاق المظلم،

بين جدرانٍ تشكو من قسوة الزمن وتئنّ تحت وطأة الغياب،

لكن الصوت جاءه واضحًا،

كأنه نداء المدينة التي لم تنسَ نفسها،

كأنها تحاول أن تستعيد أنفاسها المقطوعة،

تناديه بصوت خافت لكنه عميق، ثقيل كخاطرة طويلة:

"نزار؟" ذلك الصوت، ذلك الاسم،

كان ينبض في صدره كنبض قلبه حين يغتاله الخوف والفرح معًا.

كان يعرفه... يعرفه كما يعرف الطريق في العتمة،

كما يعرف الهواء الذي يملأ رئتيه بعد غياب طويل،

بعد موت شبه كامل.

"مالك؟" نطق الاسم،

حاملاً في نبرته سحر الحنين ومرارة الذكرى،

كان يقترب منه كأنّه يدخل مشهدًا من حلمٍ لا يريد الاستيقاظ منه،

مالك. الرفيق القديم، ابن الحارة ذاتها،

ذاك الذي فقدناه في عام 2012،

ذاك الذي تاه بين الأمواج الهائجة للحرب،

لم يكن أحد يعلم إذا كان حيًا أو ميتًا، لكنه كان هناك أمامه،

حياً، نصف جسده مشلول، محاصر بين جدران الألم والصمت،

لكن عينيه... كانت لا تزال تحملان ذلك الوهج القديم،

تلك النظرة التي تقول بلا كلمات:

"لم ننتهِ بعد. لم تكتب لنا نهاية بعد."

جلسا بهدوء على درج حجري مهترئ،

قرب بيت مهجور يتكسّر تحت وطأة الزمن،

المدينة من حولهما كانت تغرق في سكون قاتل،

هدوء يغلف الجراح، ويخفي تحت سطحه نيرانًا لم تنطفئ،

نيراناً هادئة متقدة داخل صدور مكسورة.

قال نزار بصوت يشبه الهمس، ثقيلًا ومكسورًا:

"شو صار فيك؟"

ابتسم مالك، كانت ابتسامته كالسحب التي تخفي وراءها عاصفة،

قال بنبرة حزن عميقة:

"قسموني بين فروع الحياة وسكّروا الباب أمامي،

ونسوني... نسيوني كصفحة مهملة في كتابٍ بلا عنوان."

توقف للحظة، وكأنه يحاول استدعاء كل ما تبقى من صلابة في قلبه،

ثم أضاف بصوت كأنه يكتم دموعه:

"بس يمكن... النسيان... هو الذي أنقذني." صمت نزار طويلاً،

الكلمات علقت في حنجرته، ترنّحت بين الاعتذار والصراخ والبكاء،

لم تخرج، كانت كأنها شظية عالقة في صدره،

تمنعه من التنفس بحرية.

كسر مالك الصمت، فجأة، بنبرة ملؤها الألم والثبات:

"كرم استُشهد، مو؟"

هزّ نزار رأسه ببطء، ودموعه تسيل بلا صوت على خديه،

قال بعد صمت ثقيل طويل:

"وكان عم يضحك... رغم كل شيء، رغم الموت، رغم القسوة."

بدأ يتبادلان الذكريات،

ذكريات الحي القديم الذي كان ينبض بالحياة،

حيث ابتسامة "أبو محمد" بائع الفول كانت كالدفء في برد الشتاء،

حيث كانت ليالي الحظر تمضي ببطء، والخوف يختبئ خلف الجدران،

حلمٌ قديم كان مزروعًا في قلوبهم:

بيت صغير، شرفة تملؤها ضحكات الأطفال،

مكان يلتقون فيه بلا خوف، بلا قيود.

همس نزار بصوت متقطع، كأنه يبوح لأحدٍ فقط:

"تخيل، يا مالك...صرنا هون وما بعرف كيف صرنا ولا إذا عنجد وصلنا."

ردّ مالك بعينين تحملان صدى كل المعارك التي خاضاها،

بعينين ثقيلتين كالليل الطويل:

"الوصول مو النهاية، نزار

الوصول لحظة عابرة لحظة قصيرة بين موجتين ،

بين انكسار وبداية جديدة بين موت وولادة وطن."

حين ودّعه عند باب المشفى، همس له بنبرة خافتة، مفعمة بالأمل:

"إذا بدك تبني شي لا تبلّش بحجر بلّش بإنسان ببداية جديدة، بأمل حي."

عاد نزار في تلك الليلة إلى بيته،

جلس قرب النافذة التي تشهد تعاقب الليالي،

وضع دفتره على ركبتيه، والقلم يرفرف بين أصابعه

كأنه يبحث عن حياة تلوح في الظلام.

كتب كلمات تنبض بكل ما عاشه وبكل ما بقي من حلم،

كلمات تخرج من قلب جريح لكنه متمسك بالأمل:

"من بقي من الحكاية؟ من عاد ليكمل ما لم يُقل؟

وحدهم الذين مرّوا على الحافة ولم يسقطوا

وحدهم يصلحون أن يكونوا بداية وطن."

جلس بعد أن وضع القلم، نظر إلى السماء،

حيث النجوم لم تتغير،

البشر تغيروا، والحكايات تبدلت،

والأرواح تنتظر أن تُشفى،

تنتظر أن تُبنى من جديد،

على أنقاض الألم، على رماد الحزن،

تنتظر أن تُزرع حكاية جديدة،

حكاية تبدأ من جديد، بحروف من نور.

في صمت الليل، بين ظلال الذكريات، هامسًا لنفسه:

"نكتبُ ما تبقى بدموعنا وحروفنا

بصبرنا وجرحنا لنُعيد الحياة إلى المدينة،

ولنُعيد الحكاية إلى من لا زال يصدّق أن هناك غدًا."

الرسالة التي لم تصل

كان اليوم عاديًا. أو هكذا ظنّ نزار.

هو ذاته الصباح الذي تُصبّ فيه القهوة على مهل،

كما لو أن التمهل قد يُبطئ الزمن، أو يؤجل فكرة ما.

يفتح دفتره المعتاد، ذلك الملطخ ببقع الحبر القديمة،

يُقلبه بين يديه بحثًا عن سطر يصلح ليُكتب — لا ليُقرأ.

لم يكن يعلم أن ثمة شيئًا ينتظره.

شيء يشبه الصوت حين يعود بعد غيابٍ طويل،

مترددًا كحوافّ الحلم لكنه حادّ كالسكاكين.

كان يُنظف خزانة قديمة مهملة في زاوية منزله،

تلك التي بقيت مغلقة لسنوات

كأنها قبر خشبي صغير يخبّئ خلفه شيئًا يخاف أن يرى الضوء.

رائحتها كانت مزيجًا من غبار وصمتٍ قديم من زمنٍ لم يعد له جسد.

حين فتحها سقط منها كيس صغير عالق بين شقوق الخشب.

كيس من قماش باهت، مغبرّ،

مربوط بخيط خشنٍ كأن أحدهم قد لفّه ذات خوفٍ لا ذات نسيان.

مدّ يده نحوه بتردد، كمن يمدّ يده إلى ماضٍ لم يطلب الرجوع

فتحه بأصابع مرتعشة،

بين الخيوط، وجد دفترًا صغيرًا دفترٌ يعرفه... يعرف رائحته وخطه وحدوده كان بخطٍ يعرفه جيدًا — خط كرم،

ذلك الخط الذي كان يكتب به القصائد على جدران الزنزانة ويُخفيها خلف الطوب، كأنه يُخبّئ حروفه من فم الموت،

من العيون التي تُحاكم الشعراء، والرصاص الذي لا يقرأ.

جلس على الأرض. لم يكن يجلس، بل يسقط على مهل

عيناه معلّقتان على الغلاف.

أصابعه تلمسه كمن يلمس وجها عزيزًا منسيًا في حلم

تردّد ثم فتح الصفحة الأولى.

"نزار، إن قرأتَ هذا، فأنا إمّا نجوت... أو متّ وفي الحالتين،

كنتُ أحتاج أن أقول لك شيئًا لا يُقال في العيون،

لا في العناق، ولا في خنادق الحرب."

قلب الصفحة الكلمات كانت بخطٍ غير مستقر،

مرتجف أحيانًا لكنّه صادق... صادق حدّ الطعنة.

"أنا خفت لا من الرصاص، ولا من السجن

بل من أن يتحوّل الحُلم إلى عرش والثورة إلى مسرح،

وأن نضيع نحن

نحن الذين بدأناها كي نُشفى... لا لنحكم."

"تذكُر أول ليلة؟ حين كتبتَ على الجدار:

(الحرية لا تُشبه أحدًا، لكنها تُشبهنا).

قلتَ لي: ستقتلنا الكلمات وها نحن قُتلنا فعلاً لا على يد العدو بل على يد الصمت الصمت الذي تخلّى عن الشعر."

"نزار،

إذا وصلتَ إلى وطن...لا تبحث عن تمثال لك

بل عن مقعدٍ خشبيّ في ساحة صغيرة،

تجلس عليه امرأة عجوز وتُطعم القطط

هناك يبدأ الوطن لا في القصور،

ولا في النشيد بل في ما نجونا لأجله."

"إذا رأيتَ حبيبتي أخبرها أنني متّ ولم أتوقّف عن الحُلم وأنني،

حين أغمضتُ عيني كانت صورتها آخر ما بقي في الضوء."

قرأ نزار. قرأ كما لو أنه يُترجم الدموع إلى صوت

كأن كل صفحة تُنزَف داخله كأن كل حرف يُبعث شيئًا من كرم من صوته، من ضحكته من الدفء الذي سُلب منه فجأة دون إنذار.

لم يبكِ. لم يحتج أن يبكي

كان البكاء أكبر من الدمع كان شيئًا يشبه الصمت،

الصمت حين يكون اللغة الوحيدة للحنين.

نهض حمل الدفتر بيدٍ لم تعد تعرف كيف تحمل سوى الفقد.

خرج إلى الساحة إلى ذلك المقعد الخشبي الذي كان ذات يوم مجرد خشبة مُهملة جلس عليه.

كأن كرم هو الذي دعاه،

الوقت توقّف هناك فتح الدفتر مجددًا وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ.

كأنّه يقرأ للوطن أو له أو لها أو لمن لم يعودوا أبدًا.

الريح كانت خفيفة، لكنها حملت صدى صوته

كأنّها تحفظ الكلمات كي لا تضيع.

القطط كانت تتحرّك ببطءٍ حول قدميه تُصغي... أو تتذكّر.

في الصفحة الأخيرة...كان هناك سطرٌ مفاجئ قصير

لكنه أشعل حريقًا صامتًا في صدره.

"نزار... إذا وصلت، فلا تنسَني على حافة الطريق."

قرأه أكثر من مرة كأن الحبر يختلط بنبضه

كأن السطر يرفض أن يُغلق همس أخيرًا،

صوته خافت، لا يشبه إلا قلبه:

"كرم...وصلتُ، لكنني لم أصل الحرب انتهت،

لكنّي ما زلت أسمع الرصاص داخلي أحبك،

وسأبقى أبحث عن مقعدٍ تجلس فيه...

حتى لو لم تكن موجودًا."

أرشيف الذاكرة

في مساءٍ تلبّده السكينة بعد طول انتظار، جلس على سطح منزله، وحيدًا مع دفتره القديم، وشذى ذكريات لا تهدأ.

المدينة نائمة، والهواء ينساب بهدوء كأنه يعزف لحنًا ناعمًا عن السلام المنتظر،

كأنه هو ذاته يتعلّم كيف يتنفس من جديد بعد كلّ ما مرّ.

بجانبه دفتر صغير، صفحاتُه تشبه قلبه بعد الحرب:

جُرحٌ قديم لا يلتئم، لكنه يحمل بين طيّاته حياةً وأملًا.

وبضع صور باهتة لأصدقاء رحلوا، وأثر حذاء عسكري قديم،

ليس شاهداً على حرب فقط، بل على نصر غرس جذوره في الأرض،

جعلها تنبت فرحًا.

لم يجلس ليستعيد الألم، بل ليحتفي بما بقي،

ليكتب رسالة حبّ إلى الحياة التي لم تمت،

للأيام القادمة التي تستحق أن تُعاش بابتسامة رغم كل شيء.

مد يده إلى الصفحة البيضاء، تلك التي ظلت صامتة طويلاً،

لا لأنها لا تعرف ما يُكتب، بل لأنها كانت تنتظر حروفًا تُضيء الظلام.

ثم كتب، ليس كباقي التاريخ، بل كأنّه يُرسِل دفء قلبٍ لاهث بالرجاء.

كتب عن صمتٍ غامضٍ سكن الأفق فجأة،

حين عاد العصفور يرفرف بأجنحته الثقيلة نحو السور القديم،

كأنه يعود إلى بيت طالما حلم بالعودة إليه،

وقف يهمس بصوتٍ لا يسمعه إلا القلوب المجروحة:

"هل صار للسلام مكانٌ بين هذه الأطلال؟

هل تسمح لنا الأرض أن نحلم من جديد؟"

كتب عن الفرح الذي تسلل بين شقوق البيوت المهدمة،

عن ضحكات الأطفال التي لم تعد تُخفي خوفها خلف الزوايا،

وعن أصوات تنادي "حياة!" وسط الركام،

وكأنّ الأرض نفسها تُنشد لحن الانتصار.

كتب عن شاي الصباح الذي عاد يحمّره الجيران على نار هادئة،

وعن نافذة فتحت لتُخبر الهواء أن الحياة ما زالت تستحق أن تُعاش.

كتب عن البيوت التي أعادت ترتيب نفسها،

كأنها امرأة حزينة تسرح شعرها بعناية،

تجمع خصل الحزن مع خصل الأمل،وتصنع من الألم تاجًا للغد.

كتب عن النصر، ليس كراية ترفعها الأعلام،

بل كقصة صغيرة في يد طفل يفرح لأول مرة بدون خوف،

كهمسة حبّ بين العشاق بعد غياب طويل.

كتب عن شوارع المدينة التي انطلقت تحمل أقدام الناس،

ليس كجنود، بل كعشاق للحياة،

ينثرون الأمل في كل زاوية، ويزرعون الفرح في كل نظرة.

كتب عن الحي الذي عاد ينبض بالحياة،

كلّ حجر فيه يحكي قصة انتصار،

كل زقاق فيه يهمس بأسماء لا تُنسى،

لكنها لا تحتاج لأسماء، لأنها تُكتب في القلب.

في الزاوية الأخيرة من الدفتر، كتب بخطٍ رقيق،

كالهمس الذي يختصر كل الألم والفرح:

"هنا يكتب من سيأتي بعدي، لا تتركوا الفراغ للأكاذيب،

ضعوا قصصنا في قسم الحياة حيث لا ينتهي النصر، ولا يموت الأمل."

أنهى الكتابة، وأخذ الدفتر بين يديه كمن يحمل رسالة وُلدت بعد مخاضٍ طويل،

خرج من بيته متجهًا نحو مكتبة مهجورة على أطراف المدينة،

مكان نسيه الجميع، لكنه لم ينسه هو،

حيث كانت رفوفها مكسوة بالغبار، لكنها لا تزال تحمل صدى الحكايات.

دخل المكتبة ببطء بحث عن مكان خالٍ بين الكتب القديمة،

ووضع الدفتر هناك، بحنان من يعرف أن الكلمات هنا لا تموت،

بل تنتظر من يقرأها ليكمل الرحلة.

وقف للحظة ينظر حوله،

فكر كيف أن هذا الصمت الثقيل يحفظ الحياة،

ابتسم في صمت، وخرج كمن ودع صديقًا قديمًا.

ترك الدفتر مفتوحًا على الصفحة البيضاء،

كأنها باب موارب لشيء لم يُقل بعد،

شيء يولد في صمت،شيء يُدعى الأمل...

في المساء، عاد إلى نافذته،

أمسك بقصاصه صغيرة، وكتب بخطٍ خافت:

"أخبرتهم بما رأيت، لا أكثر، ولا أقل."

المدينة كانت تنام، لكنه عرف أن كلماته بدأت تستيقظ،

وصوت دفاتره التي كانت نائمة بين الغبار

بدأ يُسمع كنبض حياة جديدة تُولد.

في تلك الليلة، لم يطفئ ضوء غرفته،

ليس خوفًا من العتمة،

بل احترامًا لما كُتب،

ولمن سيقرأ، وسيكمل الرحلة.

وفي مكانٍ بعيد، بين رفوف مكتبة منسيّة،

ينتظر دفتر صغير،

يدًا تفتح صفحاته،

وقلبًا لا يزال يؤمن بأن الحكايات لا تنتهي

حين تُكتب بصدق،

بل تبدأ... من صمتها.

سطرٌ نائم على الرف

لم تكن تبحث عن شيءٍ محدد

دخلت المكتبة القديمة كمن يدخل بيتًا مهجورًا

فقط لأن الضوء فيها يشبه ذكرى،

أو لأن الغبار لا يخيف قلبًا تعلّم أن يرى الجمال في الأشياء التي لم يعد يراها أحد.

كانت تمشي بين الرفوف كأنها تتلمّس أثرًا لا تعرفه

تلمس الكتب بأطراف أصابعها كمن يوقظ شيئًا نائمًا منذ زمن.

ثم، هناك...

في الزاوية على رفٍّ خشبي مائل رأت دفترًا صغيرًا، مختلفًا عن الباقي.

لم يكن يحمل عنوانًا ولا اسم كاتب

فقط ورقٌ قديمٌ، بغلاف باهت،

كأنّه قطعة من زمن آخر تقف على حافة النسيان.

سحبته بهدوء شعرت بشيءٍ يشبه الرجفة

ذلك الشعور الغريب حين تلمس قلبًا ليس قلبك،

لكنّه ينبض كما لو أنّه جزءٌ منك.

جلست على الأرض وبدأت تقرأ.

لم تكن مجرد كلمات كانت شهقات مكتوبة

خطوط تنزف وجُمل تشبه بكاءً مؤجلًا منذ سنوات.

كل صفحة كانت تناديها باسمها دون أن تكتبه

كل سطر كان يُعيدها إلى مكانٍ لم تزرْهُ من قبل،

شعرت كأنّها كانت هناك

وسط الركام

تغني مع الفتاة التي لم نعرف اسمها وتبكي مع كرم،

وتُمسك يد الطفل الذي كتب على الجدران ذات صرخة.

حين وصلت إلى الصفحة الأخيرة حيث السطر الوحيد الذي كُتب في الزاوية:

"هنا يكتب من سيأتي بعدي... لا تتركوا الفراغ للأكاذيب."

أدركت أنّها وُجدت

نهضت خرجت من المكتبة

المطر على اطراف المدينة ،

لم تشعر بالبرد كان قلبها دافئًا ممتلئًا بشيءٍ يشبه النذر.

منذ تلك اللحظة بدأت تبحث عن نزار.

لم تعرف من هو، ولا أين يمكن أن تجده

لكنّ شيئًا ما في الداخل قال لها هو ليس بعيدًا.

بدأت تكتب اسمه على قصاصات وتتركها على جنبات المقاهي،

تسأل عنه العجائز في الأزقة القديمة

تقرأ دفاتر السجناء السابقين،

وتحاول أن تعرف من بقي حيًّا،

من ما زال يكتب،

من فقد صوته ولم يفقد صدى الذاكرة.

في كلّ ليلة كانت تعود إلى الدفتر تقرأ منه بصوتٍ عالٍ كما لو كانت تقرأه له،

وقول في سرّها:

"نزار... إذا وصلتُ، فهل ستتذكر الطريق إليّ؟

أم تُراك تركتَ لي خارطة في الحبر وفي الصمت بين السطور؟"

في قلبها كانت تعرف...

أن اللقاء ليس وعدًا بل ضرورة.

في مساءٍ هادئ جلست قرب نافذتها الدفتر في حضنها والريح تقلّب الصفحات وحدها...

كأنّها تبحث عن اسمه بين السطور كأنّ الحبر لم يجف بعد

كأنّه ما زال يكتبه الآن، في مكانٍ ما.

عيناها ثابتتان على الورقة الأخيرة،عقلها يطوف في أمكنة لم تألفها ،

في البيوت التي احترقت في الأصوات التي نجا صداها

همست لنفسها،أو لظلّ نزار في ذاكرتها:

"لا أعرفك لكنني سمعتك وحين نسمع أحدًا بهذا العمق، لا نعود كما كنّا

شيء فينا يتغيّر... شيء يُولد."

وضعت يدها على الغلاف برفق،

كما لو أنها تودّع أحدًا سيغيب طويلا أو كأنّها تعده بشيءٍ لا تستطيع قوله بعد

ثم كتبت في دفترها الصغير، سطرًا واحدًا:

"سأبحث عنك... لا لتجدني بل لأبقيك حيًّا."

أغلقت النافذة على ضوءٍ خافت لكن قلبها بقي مفتوحًا...بصوت النداء.

حين تنفّس الحجر

ذات صباحٍ لم يُعلن عن استثنائيته صمتُه لا يُشبه الثقل،

بل يُشبه الأرض بعد مطرٍ طويل طينٌ يصغي لنبضه الأوّل.

كان نزار يقف عند أطلال بيتٍ مهدّم حجارة سوداء بلا سقف،بلا أبواب

لم يره كأنقاض، بل كصدرٍ يتنفّس.

همس لنفسه: "... تنفّس الحجر أخيرًا."

لم يقصد الحجارة وحدها بل نفسه، المدينة، أولئك الذين رحلوا،

أولئك الذين لم يجدوا بعد طريقًا للعودة.

على الجدار المنهدم كتب بخطٍ خشن: "من هنا... بدأت الحكاية."

نظر حوله أطفال يركضون بين الركام

رجل يُصلح دراجة صامتة امرأة تغرس وردةً صغيرة في علبة حليب صدئة.

كلّ شيء بدا له كقصيدةٍ لا تحتاج إلى ورق.

المساء ينحني لكنه لا يسدل الستار.

كان يمكنه اختيار النهاية لكنه لم يفعل.

تركها معلّقة، كما يليق بحياةٍ كُتبت لتبقى مفتوحة على الاحتمال.

دخل نزار الحيّ القديم بخطواتٍ متردّدة.

ذاك الحيّ الذي دُمّر بالقذيفة الأخيرة البيوت لا تُسكن، لكنها لم تمت.

الجدران لا تنطق، لكنها تهمس إذا اقتربت منها بما يكفي.

ارتخت أكتاف الأبنية من ثقل الذكرى

اقترب من باب خشبي محترق مدّ يده إليه كما تُمدّ على وجهٍ مألوف نسيته يدك.

قبل أن يفتحه صوتٌ خافت اخترق السكون:

"كانت تأتي كل أسبوع..." استدار

امرأة في الأربعين، عيناها مثل مطرٍ لم يهطل بعد.

قالت: "تلمس الباب بلطف، لا لتدخل بل لتتذكّر المكان أنها مرّت من هنا."

سكت، كمن يختبر رجفة ذاكرةٍ لم تكتمل. تابعت:

"أنا صديقتها تركت صمتها في الزوايا وبعضًا من تنفّسها في الحجارة

قالت لي ذات يوم:

لا أريد أن أكتب له رسالة أريده أن يشعر بي حين تلمس يده هذا الخشب حين تمرّ نسمة... وتُشبهني."

لم يجب جلس هناك، قرب الغبار، قرب الركام

كمن التقط ظلًّا عاش في داخله طويلًا دون أن يعرف.

خرج من المكان فارغ اليدين لكنّه خرج ممتلئًا بها.

الصباح التالي استيقظ الضوء بتلكؤ، كعاشقٍ أنهكته الذكريات،

خرج نزار لا كبطل، بل كمن قرّر أن يُرمّم ذاكرةً بيديه العاريتين.

لم ينتظر مرسومًا ولا دعمًا ولا جمهورًا.

التقط مطرقة وبعض المسامير وابتدأ من هناك...من بيتٍ سقط ولم يمت،

من نافذةٍ ما زالت تنظر إلى السماء كما كانت تفعل قديمًا.

راح يطرق الحجارة كمن يعزف على وترٍ مكسور،

ينفض الغبار عن الأبواب كمن يوقظ حلمًا ظلّ نائمًا في الخشب.

كان يُرمّم لا ليُعيد شكلاً، بل ليحفظ الأثر،

ليقول للمدينة بهدوء: "نحن هنا... ما زلنا نحلم."

أحس انه كلّما عبرت النسائم بين الحجارة و كلّما تفتّت الغبار عن نافذةٍ منسيّة

يسمع همس خافت يتموّج في الهواء: و اخيرا

زهورٌ على نوافذ سوريا

كانت الشمس تميل ببطء نحو الغرب،

تراقب دمشق من عليائها

كما تراقب أمّ ابنها النائم بعد مرضٍ طويل.

تلك الشمس،

التي اعتادت أن تغيب على وقع الانفجارات،

اليوم تغرب على وقع ضحكةٍ،

على ظلّ شجرةٍ نبتت وسط الخراب،

على خطواتٍ تعود إلى الحيّ بعدما ظنّ الجميع أنها لن تعود أبدًا.

تنفّست المدينة — أخيرًا — كما لو أنها تُولد من جديد.

لا بزخمٍ ولا صخب، بل برقة مَن نجا،

في الساحات القديمة، حيث امتزج الدم بالغبار،

حيث ظلّت الأبواب مغلقةً لسنين طويلة،

خرجت الزهور من نوافذ البيوت كأنها تعتذر عن التأخر،

كأنها تقول للناس: "لم أرحل... كنتُ أنتظر الضوء فقط."

الورود، تلك التي سُقيت بالحلم، أطلت بخجل،

بحياءٍ يشبه من خرج لتوّه من رمادٍ،

الأطفال في الأزقة لم يعودوا يركضون فقط،

بل يركضون ويغنّون و يلعبون

ضحكاتهم ترتدّ على الجدران، وتكبر،

تملأ الشوارع بصدى جديد، صدى لم تألفه المدينة منذ زمن:

صوت البراءة حين تنتصر.

سار نزار بصمتٍ بين الأرصفة التي عرفها منذ كان صبيًا،

تلك الأرصفة التي حفظت وقع أقدامه،

وانحنت لخطاه المكسورة،

راكمت فوق إسفلتها أسرارًا لا تُقال.

كل زاوية في المدينة تهمس له باسم،

كل حجرٍ يحمل وجهًا، كل شارع يُناديه بشيء من الحنين.

كأنّه يسير في مدينةٍ من الذكريات لا من الإسمنت،

كل شيء فيها يعرفه: ضحكته القديمة، دموعه التي لم يُظهرها،

ورجاءه الذي دفنه في الزوايا.

رأى فتاةً تبيع زهورا على الرصيف،

عيناها فيهما شيء من سماءٍ بعيدة،

ابتسامتها تشبه أول ضوء في شتاءٍ دامس. قالت له:

– "بتحبّ تهدي وردة لحدا؟"

أخذ وردة بيضاء، شمّها... تذكّرها.

تلك التي رحلت، أو تلك التي سكنت حلمه،

أو ربما وجه المدينة كما حلم به دومًا:

خفيفة، نقية، تضيء ولو في أقسى العتمات.

في لحظة، عاد له الشعور الذي ظنّ أنه خسره للأبد.

قلبه، الذي صمد في وجه الحرب،

خفق كوردة فتحت ببطء،

كمن اكتشف أن للحياة طعماً لم يُجرّب بعد.

مرّت إلى جواره عروس بثوب أبيض،

يتقدّمها شاب يرتدي زيًّا عسكريًا ليس فيه من الحرب شيء...

شارة صغيرة فقط كتب عليها: "سوريا لنا جميعًا."

مرّا بخفة من لا يحمل ثأرًا ولا شعارًا، فقط حلمًا.

غنّت امرأة من الشرفة: "ارفع راسك فوق... أنت سوري حر."

انضمّ إليها صوت نهر بردى،

الذي عاد يجري من تحت الجسر كأنّه لم يتوقف،

انحنى قاسيون على المدينة،

كما تنحني أمّ لتقبيل جبين ابنها العائد من منفى طويل.

همس الجبل بصوته الحجري العتيق:

"ما عدت وحدك يا نزار... الشهداء عادوا معك."

وقف نزار وسط المدينة التي عادت تمشي على قدميها

يحمل وردته البيضاء،

ينظر إلى الجبل، إلى الأزقة،

إلى العيون التي ما زالت ترى رغم كل الدخان،

إلى الحياة التي قرّرت أن تعود فجأة دون سابق إنذار

قال... بصوتٍ لم يسمعه أحد سواه:

"الآن فقط... بدأت الحكاية."

سار بهدوء كأنّه لا يريد أن يوقظ الحلم،

أو كأنّه يخشى أن يتبدّد لو مشى بسرعة.

لكن داخله كان يعجّ بكلمات لم تُقال،

بحياة تُكتب من جديد:

"سنوات كثيرة مضت وأنا أبحث عن خروج

لكنني لم أكن أبحث عن باب، بل عن يد اليوم فقط،

شعرت أن أحدًا فتح لي النافذة الهواء ليس كما كان...

صار فيه طمأنينة، صوتها، حلمها، دمعتُها الأخيرة."

رفع الوردة إلى صدره، كما يُضمّ ذاكرة ومضى...

لا إلى النهاية، بل إلى بدايةٍ أخرى،

بدايةٍ تشبه نزار أكثر من أي وقتٍ مضى.

أنفاس دمشق

دمشق لم تكن مدينة فقط، كانت شهيقًا طويلاً كُبت لعقود،

حتى جاء هذا اليوم... يوم الزفير الكبير.

صباحها لم يشبه أي صباحٍ مضى، كانت ترتجف من فرحٍ خجول،

كمن لا يصدق أنه استعاد جسده بعد غيبوبة.

الجدران لم تعد تراقب، الشرفات تزيّنت بالرايات لا بالحذر،

الهواء صار دافئًا كأنفاس أمّ تنتظر عودة ابنها منذ سنوات.

في ساحة الأمويين، التي طالما بلعتها الظلال الثقيلة،

امتلأت الأرواح بالنور ارتفعت الأعلام، لا تحرسها دبابات،

بل تحميها القلوب

هتافات تُولد من صدورٍ تشقّ طريقها لأول مرة بلا خوف،

ضحكات تنفجر فجأة من بين الحناجر،

كأنها تدرك فجأة أن بإمكانها أن تكون عالية.

وقف نزار هناك، في منتصف الساحة، لا يعرف لمن يبتسم أولًا:

هل يبتسم للطفل الذي يركض خلف طائرة ورقية بألوان الثورة؟

أم للمرأة التي قفزت من فرحتها تصرخ: "رجعت الشام النا!"؟

أم للشيخ الذي يوزّع الحلوى على الغرباء لأنه انتظر هذه اللحظة خمسين عامًا؟

كلّ وجه مرّ أمامه كان يعرفه بطريقة ما...

كأنّ الذاكرة العامة للمدينة تنهض فيه.

غنّت مكبرات الصوت: "ثوري، ثوري درعا"،

ثم: "بالحب بدنا نعمرها"،

اختلطت الموسيقى بأجراس الكنائس،

بالأذان من الجامع الأموي

كأن المدينة قررت أن تُغنّي بكل لغاتها، أن تُصلّي بكل دينٍ للحياة.

في الزوايا، جلس شبّان وشابات على الأرض

، يكتبون الشعر، يرسمون ينسجون قصائد على حيطان المرجة،

يتبادلون قصائد درويش يرسمون قلبًا كبيرًا تحته:

"الحرية بتشبهنا".

تلك الحظة ، رأى لافتة مرفوعة فوق حشدٍ صغير كُتب عليها:

"أنا ابنة هذه المدينة... وها أنا أتنفّس."

حين قرأها شعر كأنّ دمشق ذاتها تقولها تخرج من الغيبوبة، وتفتح عينيها، وتُعلن: "عدت."

بردى لم يعد يبكي... بردى غنّى،

أشجار الزيتون على أطراف الغوطة أزهرت دفعة واحدة

كأنها كانت تنتظر كلمة سرّ، قيلت أخيرًا.

سمع نزار صوتًا خلفه، صوتًا نقيًا، مألوفًا: "نزار؟ انت نزار انت نزار صح؟"

تجمّد للحظة، لم يكن قد أظهر وجهه، كان يغطّيه بكوفيّة التفت ببطء.

كانت هناك...

الفتاة التي وجدت الدفتر ذات صباحٍ مهجور

عرفته من طريقته في الوقوف، من صمته، من عينيه.

اقتربت منه بخطى حذرة، كأنها تخاف أن تكون واهمة،

لم يهرب، لم يُنكر كلّ ما فعله أنه ابتسم.

قالت له، ودموعها تلمع في عينها:

"حين قرأت دفترك، شعرت أنك ما زلت حيًا... لكنّي لم أتصوّر أن أجدك."

أجابها بنبرة خافتة:

"وأنا كتبت لأبقى... لا لأن أبقى أنا، بل لأن تبقى الحكاية."

نظر حوله، إلى الساحة التي تغيّرت،

إلى الأمل الذي كبر فجأة

إلى دمشق التي لم تعد أطلالًا... بل جسدًا ينبض.

قالت له: "ما رأيك أن نبدأ بكتابة الفصل التالي... سويًا؟"

لم يجاوب، فقط مدّ يده

أمسكتها كما لو أنها تمسك بظلّ وطن.

ذلك اليوم كان لقاسيون ملامح أمّ حنونة انحنى على المدينة،

قبّلها من جبينها قال بصوته الحجري العتيق:

"ما عدت وحدك يا نزار... الشهداء عادوا معك، وعادت لك الحياة."

رفع وردةً بيضاء كانت في يده

أهداها لها، وقال:

"هذه لك... ولدمشق، ولمن آمن أننا سنصل."

مضى معها في الزحام، لا كرمزٍ، ولا كبطل بل كعاشقٍ

وجد أخيرًا من يُكمل معه الحكاية،

يمشي بين الناس، يضحك،

ينظر إلى الحياة تمشي على قدمين

"سنوات كثيرة مضت وأنا أبحث عن الخروج لكنني لم أكن أبحث عن باب بل عن يدٍ تفتح النافذة."

في كلّ خطوة، كان أثره يشبه الوعد.

في الزاوية الأخيرة من الساحة حيث الضوء ينام بهدوء على الحج

جلست هي على الدرج، وفتحت دفتره القديم،

كتبت أول جملة فيه بصوتٍ لا يسمعه سواهما:

"ربما لن نروي كل شيء...لكننا سنزرع كل يومٍ شيئًا جديدا

يصلح أن يكون بداية... لحياة."

في قلب المدينة، حيث تنتهي الطرق كلها وتبدأ

كانت دمشق تهمس من أعماقها

"هكذا... تبدأ الحكايات التي لا تنتهي."

مدن لا تموت

ليست كل النهايات موتًا.

بعض النهايات ولادة... تُشبه الفجر حين يخرج من خاصرة العتمة.

هذه الرواية... لم تكن عن الهزيمة،

بل عن القلوب التي ظلّت تنبض وسط الركام،

عن الأرواح التي وقفت في وجه العدم،

عن وطنٍ اسمه سوريا... ظلّ يُكتب رغم محاولات المحو،

رغم أنين الليل، وبكاء الزنازين، وموت الأرصفة.

سوريا لم تكن خارطة على السبورة،

ولا علمًا نرفعه في الطابور.

كانت رائحة الخبز في البيوت القديمة،

ضوء النهار حين يتسلل من شقوق الجدران،

كانت دمعة أمٍ لا تجف،

وضحكة طفلٍ تسبق الرصاصة،

كانت الأمل الهارب من تحت الأبواب المغلقة،

كانت تنام في القصائد الممنوعة،

في الأغاني التي لا تُغنّى إلا سرًّا.

سقف الجحيم لم يكن سجنًا،

كان مقامًا من وجع، غبارًا لا يهدأ في الصدر،

اسماً يصرخ في وجوه الغياب: "أنا ما زلت هنا".

كان لي كشاهد، وككاتب، وكمن خَبِرَ الظلمة حتى صار يتذوّق الضوء.

لكن حتى من بين الرماد... وُلد صوت.

صوت صغير، خافت، يرتجف لكنه لا ينكسر.

ثم صار صرخة، ثم هتافًا، ثم فكرة...

ثم نارًا تُدفئ من لم يتبقَّ لهم سوى الذكرى.

كان صوتنا، صوتك، صوت الذين لم يعودوا.

صوت الحياة، في وجه الذين أرادوا لنا موتًا هادئًا.

الحبّ لم يغب عن هذه الرواية،

بل كان السرّ فيها.

حبّ الأرض التي خبّأت شهداءها في صدرها،

حبّ الحبيبة التي غابت ولم تغِب،

حبّ نزار الذي لم يتخلَّ، ولم يتوقف عن السير،

وحبّ الأصدقاء الذين غادرونا قبل أن تكتمل الحكاية،

لكنهم تركوا لنا إشارات الطريق.

سوريا الجديدة؟

لم تأتِ على ظهر دبابة، ولا تحت راية منفى.

جاءت من قلوب صادقة، من أيادٍ بنَت ببطء،

من رجالٍ ونساءٍ قالوا: "كفى"،

ثم عادوا ليزرعوا، ليكتبوا، ليُحبّوا، ولو بجراحٍ مفتوحة.

هي ليست مدينة فاضلة،

ولا غيمة بلا ظلّ.

هي وطنٌ يعرج، لكنه يمشي، يبكي، لكنه يحضن أبناءه،

يحمل ندوبًا كثيرة، لا يخجل منها.

فيه صوت فيروز كل صباح،

وفيه خبز التنور،

وفيه ظلّ شجرة، وسقفٌ بلا قناص.

لم يعد هناك طائرات، ولا عيون تخاف أن تضحك.

بل وجوه تشرق وأغان تُغنّى من الشرفات،

وأطفال يركضون... لا من شيء، بل نحو الحياة.

لم نبحث عن خلاصٍ مجرّد،

بل عن شيء يُشبه الحلم.

حين وجدناه، لم يكن نبوءة، بل امرأة.

امرأة تشبه الوطن...تضحك كما تضحك الحارات القديمة،

تبكي كما تبكي الشام عند الغروب،

تحبّه كما لم تحبّه الحياة يومًا.

ونهاية الحكاية؟ لم تكن نهاية.

بل افتتاحية زمنٍ جديد،

صفحة جديدة لا تكتبها يد واحدة بل أيدٍ كثيرة... أيدينا جميعًا.

وأنا...أنا الكاتب، الشاهد، الطفل الذي كبر وهو يعدّ أسماء الغائبين،

أنا الذي كتبت هذه الرواية من تحت السقف المائل،

من بين الظلال الثقيلة من فوق جثة حلمٍ قديم.

أنا الذي مزج الحبر بالدمع والكلمات بالخوف،

ثم نهض، ثم كتب، ثم صدّق... أن الكتابة حياة.

لم أكتب لأبكي بل لأتذكر ثم لأسامح ثم لأحلم من جديد.

كتبت لأنني أردت أن أبقى،

أن أثبت لنفسي أن الناجين ليسوا فقط أحياء،

بل رواة.

وأن من عبروا الجحيم لا يخرجون صامتين،

بل يحملون الحكاية في صدورهم،

ويسردونها... كي لا تعاد.

قلمي الذي كان ينزف طوال الطريق

الآن يرقص.

يرقص على إيقاع أغنية في احياء دمشق ،

على دندنة عودٍ في مقهى الحجاز،

على همسة حُبّ من شرفة في القيمرية،

على صوت الأذان وأجراس الكنائس تتعانقان في المساء.

أكتب لا على حافة الجحيم بل على عتبة الضوء.

لأول مرة... أكتب وأنا أبتسم.

سوريا حرّة وأنا أيضًا.

أغلق هذه الرواية، لا على كلمة "النهاية"،

بل على كلمة "البدء".

لأن الحكاية، كل الحكاية، بدأت الآن.

ها أنا... أقف على الحافة الأخرى من السرد،

أنظر إلى دفتر الرواية،

ثم أتركه مفتوحًا... على الجهات الأربع.

لا لتُقرأ فقط بل لتُكمل.

لتكتبها العيون التي سهرت والقلوب التي وجعت،

والأرواح التي ما زالت تبحث عن صوتها.

لأن الحكايات الكبرى... لا تنتهي.

بل تتنفس من جديد مع كل من يجرؤ أن يحكيها.

مع كل من نجا... وأحبّ

مع كل من كتب... فبقي.

ها أنا... ما زلت أكتب

لأن في داخلي سطرًا آخر... ينتظر النور.

يتبع......

مهند خليل العاني